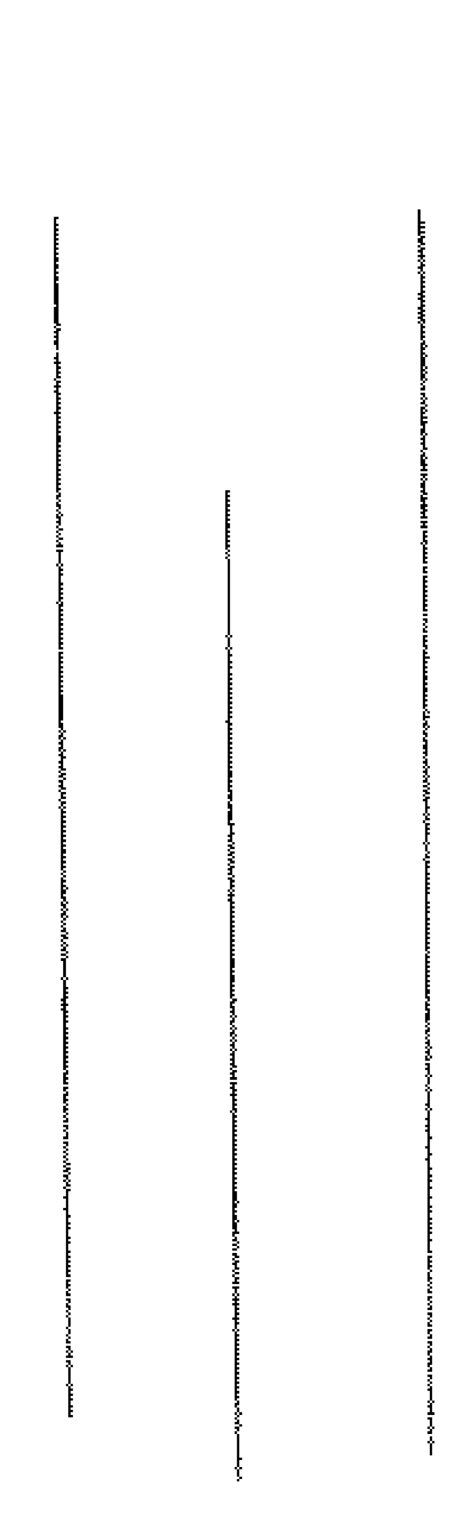
كيف ينظر المسلمون

إلى الحجاز وجزيرة العرب

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

دار ابن كثير

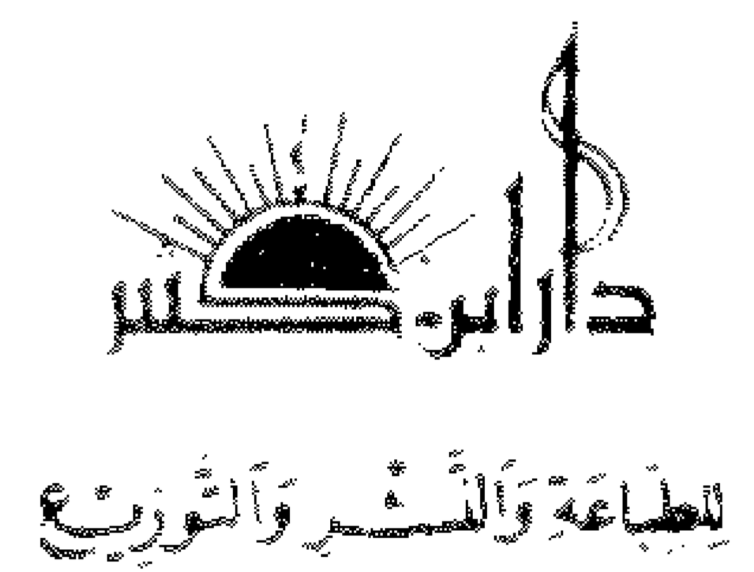


كيف ينظر المسلمون

إلى الحجاز وجزيرة العرب

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب : ٣١١ - هاتف : ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس : ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب : ١١٣/٦٣١٨ - تلفاكس : ٨١٧٨٥٧ - ٣٠١ - ٣٠٤٤٥٩ -

كيف ينظر المسلمون

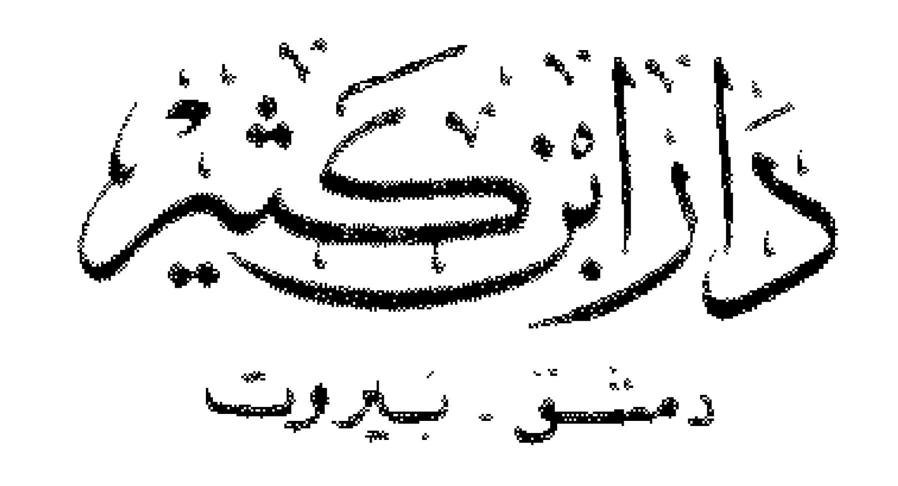
إلى الحجاز وجزيرة العرب

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني النّدويّ

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

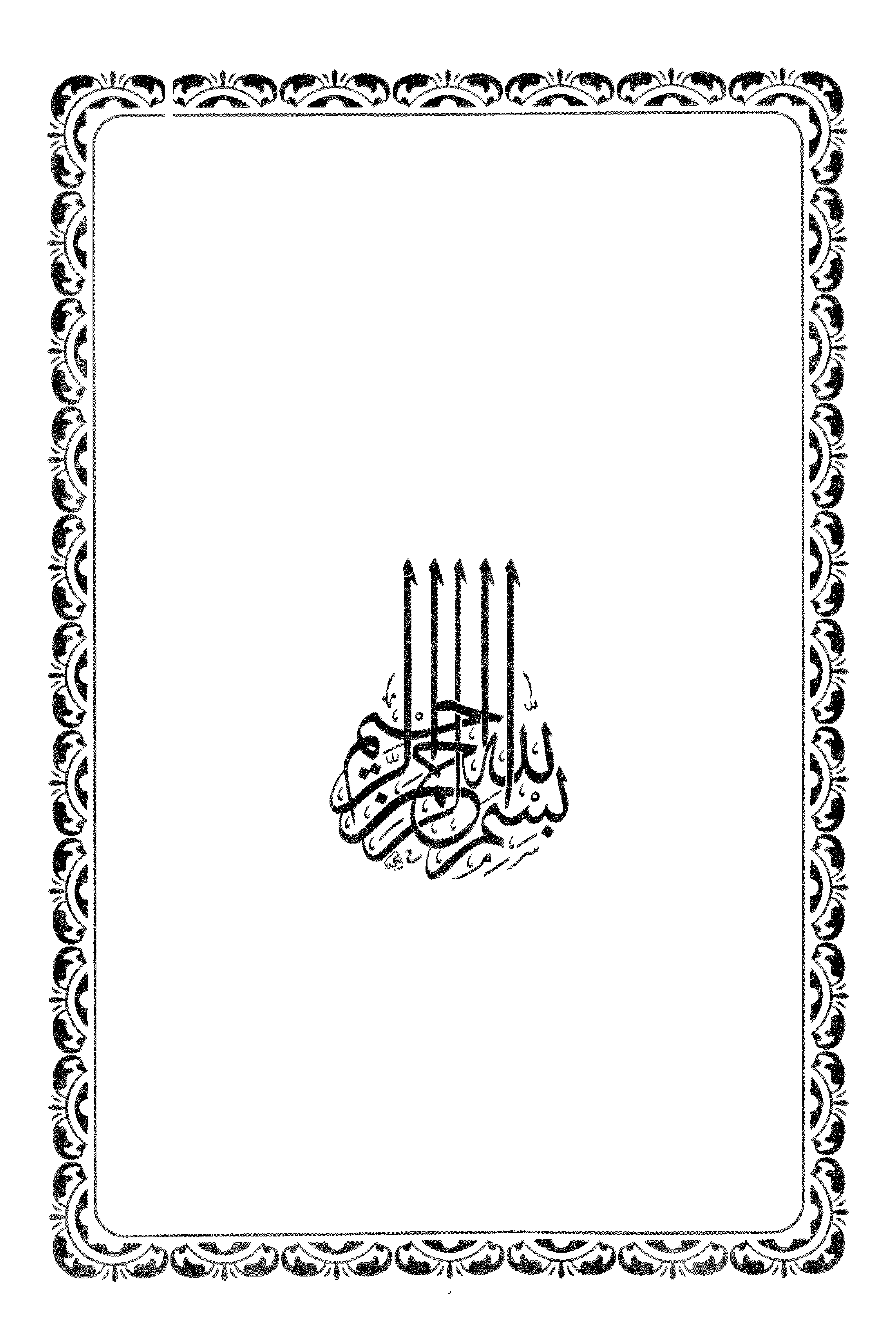
إعداد

سيّد عبد الماجد الغوري



دار ابن كثير

دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

ملامح من حياة

العلاّمة الإمام السيّد أبي الحسن الندوي وشخصيته

بقلم : سيّد عبد الماجد الغوري

اسمه ونسبه وأسرته :

• علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧هـ) .

• أبوه العلامة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

• أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

● أبصرَ النورَ في ٦محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية « تكية كلان » الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

● بدأ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دخل في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .

● توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .

● بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّع فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

● التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونال منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمَّة في اللغة العربية والأردوية ، ممَّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتعلَّم الإنجليزية مما مكّنته من

قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

● التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاّهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحضر دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعوية :

● انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُينَ أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء العرب والزعماء السياسيين .

● قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تعرَّف فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبقيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأسَّى بالشيخ محمّد إلياس

الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

● أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣ ، وأسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

● عُيِّنَ أميناً عاماً لدارالعلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١ ، (ولا يزال يترأس أمانتها إلى يومنا هذا) .

● شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ .

أهم مؤلفاته :

● نشرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة « المنار » للعلاّمة السيِّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً .

● ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونالَ قبولًا عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

● بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَر أوّل كتاب

فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠ ، و « قصص النبيين » للأطفال و « القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م . وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

● ألّف كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .

● دعيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألقى محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشرت بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

● ألَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧ ، و « السيرة النبوية » عام ١٩٧٦م ، و « العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠م و « المرتضى » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .

● شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢م ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م ، وأصْدَرَ مجلّة باسم « تعمير حيات » في الأردوية عام ١٩٤٨م ، وكَتَب مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمهات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و « الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و « حضارة الإسلام » للدكتور مصطفى السباعي و « المسلمون »

للدكتور سعيد رمضان المصري .

• أشْرَفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عا ١٩٦٢م ، وكذلك أشرف على مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصا .رة منذ عام ١٩٥٥م وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ومجلة « تعمير حيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاته :

• سافرَ إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كل مجال ، جوَّاباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، واعظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها[1] .

تقدير وتكريم :

• انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

• اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية

---

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب « رحلات العلامة أبي الحسن علي الندوي محاضراته ـ مشاهداته ـ لقاءاته ـ انطباعاته » جمع وترتيب وتعليق لصاحب المقال ، صدر من دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م .

بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .

- اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

- اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

- منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .

- اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

- اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .

- اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .

- أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩م في إستانبول « تركيا » .

- اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقدَّم إليه الجائزة ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

● تولّى العلامة الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتفوَّقتْ على معظم جامعات العالم التي تَهْتم بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .

● وعدا ذلك تولّى العلاَّمة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

وفاته :

كان ـ العلامة الندوي ـ في حالة صحية جيدة قبل يومين من وفاته ، قضى عشرين يوماً من رمضان المبارك في مقره بدار العلوم ـ ندوة العلماء برفقة من أصحابه وزوَّاره الذين يصومون معه في كل عام ، ولكنه في العشرين من الشهر غادر لكهنؤ إلى مسقط رأسه « تكية كلان » (الواقعة في مديرية « رأي بريلي ») ، لكي يقضي هناك العشرة الأخيرة مع أفراد عائلته ، ولما كان يوم الجمعة (وهي جمعة الوداع في العالم الإسلامي كله) تهيأ لصلاة الجمعة ، واستحمَّ ، وغيَّر الملابس ، وتطيَّب (وكان في ذلك كله في غاية الاهتمام) فبدأ يتلو سورة الكهف قبل أن يقصد إلى المسجد إذ فاجأته نوبة قلبية ، توقف معها القلب وطارت الروح إلى بارئها ، وانضمَّ ـ رحمه الله ـ إلى صفوف أولئك الرجال من المؤمنين الذين أشاد الله بذكرهم في تنزيله ، فقال :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر له مغفرة شاملة[١] .

* * *

---

(١) انظر كتاب « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » لصاحب المقال ، للاطلاع على حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ومآثره القيمة في مجال الأدب وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية وتعريف لأهمّ مؤلّفاته ، صدر من « دار ابن كثير دمشق - بيروت عام ١٩٩٩م » .

مقدمة الكتاب

بقلم : العلامة المؤلف ـ رحمه الله ـ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف النبيين ، وخاتم المرسلين : محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فمن المعلوم المقرر أن مركز الحجاز ـ الذي فيه الحَرَمان الشريفان ـ ومركز جزيرة العرب ـ التي فيها الحجاز ـ في العالم الإسلامي، مركز القلب في الجسم الإنساني ، الذي إذا عاش وقوي ، وأدى رسالته في الجهاز الجسمي والنظام الحيوي الصحي، عاش الجسم وقوي ، وإذا دب الوهن إلى هذا القلب أو اعتل ، وتخلى عن وظيفته ودوره ، أسرع إليه الموت . واستولت عليه الأمراض والعلل ، وعجز الأطباء الحاذقون عن إعادة الحياة إليه بالطرق الصناعية ، وقد أشار إلى هذه الصلة الدقيقة العميقة بين القلب والجسد ، الحديث الصحيح المشهور الذي جاء فيه : « ألا إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »[1] .

وذلك لأن الحجاز مهبط الوحي ، ومبعث الإسلام ، ومصدر الدعوة الإسلامية ، ومركز الإسلام الدائم ، وعاصمته الخالدة ، وهو

---

(١) حديث متفق عليه .

البلد المثالي ، والمقياس الصحيح الدائم للحياة الإسلامية وتعاليم الإسلام العالمية ، وصلاحيتها للبقاء والتطبيق ، وظهور المجتمع الإسلامي في حيويته وأصالته ، وجماله وقوته ، فالرسالة الإسلامية مهما كانت عالمية آفاقية لا بد لها من مركز يعتبر مقياساً وميزاناً لعمليتها وواقعيتها ، وأسوة وقدوة لجميع المدن والقرى والمجتمعات التي تؤمن بهذه الرسالة ، وتحتضن هذه العقيدة والدعوة .

والإنسان مفطور على البحث عن المقياس الصحيح والبلد المثالي ، والموئل الذي يأوي إليه ، والمصدر الذي يستمد منه القوة والثقة ، والحماسة والاندفاع ، سواء في الأديان والشرائع والنظم والفلسفات ، والحضارات والمدنيات ، والآداب والعادات ، واللغات واللهجات ، والأناقة والثقافة ، وسلامة الذوق ورقة الشعور ، فكان لكل دين مركز يحتج بعمله وأعرافه ، وكان لكل حضارة بلد مثالي أو عاصمة أو قاعدة يستدل بأساليب الحياة فيها والأنماط المدنية والمثل الاجتماعية في نواحيها ، ولكل لغة وأدب مركز يستند إليه في معرفة الصحيح الفصيح من التعبير والبيان ، ومناهج اللغة والكلام ، والحكم على المفردات واللغات ، بالصحة والخطأ ، ولكل عصر وإقليم بلد مثالي يتظرف الناس ويتنبَّلون بتقليد عاداته وتقاليده واتخاذ مثله وقيمه أمثلة كاملة للحياة الراقية والأخلاق الفاضلة .

وقد عقد الله بين العرب والإسلام ، ثم بين الحجاز والأمة الإسلامية ، ثم بين الحرمين الشريفين وقلوب المسلمين ، للأبد ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، وقد حرص رسول الله ﷺ ـ وكان في ذلك نبياً ملهماً وحكيماً كل الحكمة ـ على بقاء هذا الرباط الوثيق

المقدس بين جزيرة العرب والإسلام ، فضلاً عن الحجاز والحرمين الشريفين ، وحرص على سلامة هذا المركز وهدوئه وشدة تمسكه بهذا الدين ، وعضه عليه بالنواجذ ، لأن العاصمة يجب أن تكون بعيدة عن كل تشويش وعن كل فوضى ، وعن كل صراع عقائدي أو مبدئي ، فشرع لذلك أحكاماً بعيدة النتائج واسعة المدى ، وأوصى لذلك وصايا دقيقة حكيمة ، وأخذ لذلك من أصحابه وأمته عهوداً ومواثيق ، وقد ذكرت عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فقال : « كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال لا يترك بجزيرة العرب دينان »[١] وعن رافع « أن النبي ﷺ أمر أن لا ندع في المدينة ديناً غير الإسلام إلا أخرج »[٢] ، وعن جابر بن عبد الله يقول : « أخبرني عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيهم إلّا مسلماً »[٣] .

وأخذ بذلك الخلفاء الراشدون المهديون ، فكانوا ينظرون دائماً إلى جزيرة العرب كمعقل للإسلام ورأس مال الدعوة الإسلامية ، وقد جاء في وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لخليفته « أوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام »[٤] .

وقد حمل كثير من علماء بلاد العجم وأئمتها ، ممن ولدوا ونشؤوا في هذه الديار ، نظرهم إلى العرب كالرائد الأول للإسلام والواعي

---

(١) رواه أحمد في المسند والطبراني في الأوسط .
(٢) رواه الطبراني .
(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه .
(٤) الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب المناقب .

الأمين لروحه وجوهره ، وإلى اللغة العربية كاللغة التي نزل بها القرآن ونطق بها الرسول ﷺ ، ولا يمكن التضلع من الثقافة الإسلامية ، وفهم القرآن فهماً عميقاً دقيقاً إلا بمعرفتها والرسوخ فيها حملهم كل ذلك على أن يتعرَّبوا في كثير من عاداتهم وشاراتهم ، ويحافظوا على اللغة العربية وآدابها ، ويتواصوا بذلك ، ويجعلوها كلمة باقية في أعقابهم ، ويحذروا من تقليد العجم والتخلُّق بأخلاقهم ، وما ذاك إلا للحب العميق الراسخ للنبي ﷺ وأصحابه ، ولأنه ظهر في العرب وارتضى الله لهذا الدين المظهر الإبراهيمي العربي في الأخلاق والآداب والميول .

وقد جاء في وصية أحد كبار أئمة الإسلام في بلاد العجم ما يدل على ذلك دلالة واضحة ، قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (المتوفى ١١٧٦هـ) في رسالته التي أسماها « المقالة الوضيئة في النصيحة والوصية » :

« نحن رجال غرباء هاجر آباؤنا إلى الهند ، وإن عربية النسب وعربية اللسان مفخرتان لنا ، وهي التي تقرِّبنا إلى سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين ومفخرة الوجود ﷺ ، ومن شكر هذه النعمة العظمى ألا نتخلى بقدر الإمكان عن عادات العرب الأولين وتقاليدهم ، الذين نشأ فيهم رسول الله ﷺ ، ولا نسمح لتقاليد العجم وعادات الهنادك أن تنتشر بيننا » :

ثم قال : « السعيد منا من حصلت له مشاركة في لسان العرب والصرف والنحو وكتب الأدب ، واطَّلع على الحديث والقرآن ، ولا بد لنا من حضور الحرمين الشريفين وتعلُّق القلب بهما ، وفي ذلك سرُّ

سعادتنا ، والشقيُّ من أعرض عنهما »[1] .

والذين أدركوا هذه الحقيقة من علماء الإسلام وقادة الفكر في العالم الإسلامي رأوا أن ارتباط الأقطار الإسلامية المترامية الأطراف واتصال الجاليات الإسلامية والشعوب المسلمة بجزيرة العرب بصفة عامة ، والحجاز والحرمين الشريفين بصفة خاصة ضروري ، وأن ارتباطها بهذا المركز ارتباط السواقي والترع بالنهر الكبير الفياض ، وارتباط الأوراق بالشجرة الخضراء ، إذا انقطع كل من ذلك عن أصله ومركزه ، انقطع عنه المدد ، وتوقَّف تيار الحياة الذي يسري إليه من هذا الأصل وأسرع إليه الجفاف والذبول ، وخافوا إذا حدث ذلك ، أن تغيب القوة التي تربط بين الوحدات الإسلامية عقائدياً وعقلياً وحضارياً ، وينشأ إسلام إقليمي : فينشأ إسلام إيراني ، وإسلام تركي ، وإسلام هندي ، وإسلام أفغاني ، وإسلام أوربي ، وإسلام أمريكي ، ويظهر في جانب من جوانب العالم الإسلامي الواسع تحريف ديني أو مسخ للإسلام ، أو تنجح مؤامرة يحوكها رجل ذكي من أعداء الإسلام فلا تمكن مقاومتها والتغلب عليها ، وكان ذلك من حكم مشروعية الحج وأسراره ، لأنه استعراض عالمي للأمم الإسلامية وطبقات الأمة المسلمة على صعيد واحد ووقت واحد ، في رحاب البيت الحرام الذي جعله الله ملتقى المسلمين وقياماً للناس[2] .

ولما كانت الجزيرة والحجاز معقل الإسلام ومبدأه ومنتهاه ،

---

(١) « المقالة الوضيئة في النصيحة والوصية » بالفارسية طبع دهلي ١٢٦٧هـ .
(٢) راجع باب أسرار الحج في « حجة الله البالغة » للشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي .

والموئل الذي يأوي إليه الإسلام والمسلمون في ساعات عصيبة وأزمات مختلفة وفي آخر الزمان ، وقد جاء في بعض الأحاديث ما يدل على ذلك :

فعن عمرو بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها ، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رؤوس الجبل »[1] .

وعن عمر عن النبي ﷺ قال : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها »[2] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »[2] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »[3] .

ولما كانت هذه الجزيرة ، وهذه البقاع المقدسة مصدر الإشعاع العالمي الإسلامي ومقياس قوة الإسلام وسلطانه ، كان علماء المسلمين وقادتهم في كل زمن وبلد ، شديدي الحساسية لما يقع فيها من حوادث ، ولما يجري فيها من تيارات ، دقيقي الحساب لمدى تمسكها بالتعاليم والآداب الإسلامية ومحافظتها على الروح الدينية والعاطفة

---

(١) رواه الترمذي .
(٢) صحيح مسلم ج١ ص٨٤ ، كتاب الإيمان بيان « إن الإسلام بدأ غريباً » إلخ .
(٣) صحيح البخاري ، ج١ ص٢٥٢ .

الإسلامية ، كبيري الغيرة عليها وعلى قيادتها للعالم الإسلامي ، وقد تجلى ذلك في كتابات علماء الإسلام وأدبهم وشعرهم في أزمنة مختلفة ، وقد سار قول أشهر شعراء « إيران » وأدبائها : الشيخ مصلح الدين « سعدي » الشيرازي (المتوفى ٦٩١هـ) مسير المثل : « إذا بدأت طلائع الفساد والانحراف من فناء الكعبة ورحاب البيت الحرام ، فعلى الإسلام والمسلمين السلام » وقد فزع الشاعر الفارسي المسمى بأبي المجد مجدود الغزنوي المعروف بالحكيم السنائي (المتوفى ٥٤٦هـ) لحوادث جرت في عصره ، ولتسرُّب نفوذ بعض القوى المعادية للإسلام إلى جزيرة العرب ، وإلى البقاع المقدسة ومركز الإسلام ، فأشار إلى ذلك في قصيدة له ، وحسب له كل حساب ، وحذر العالم الإسلامي من سوء عاقبته ، وأثار غيرة أهل الحجاز وأبناء الجزيرة »[١] .

واعتبر المسلمون في كل بلد مهما تباعد عن مركز الإسلام ، وتشاغل بحوادثه وقضاياه ، صيانة هذا المركز عن نفوذ أعداء الإسلام ، والقوى المعادية له ، أقدس واجباتهم ، وأعظم مسؤولياتهم ، وفضلوها على كل قضية وطنية ، ومصلحة إقليمية أو شعبية ، وقد كان لمسلمي الهند دور رائع في هذه الغيرة والحماس ، والتفاني للجزيرة والحرمين الشريفين والاهتمام بقضاياهما ، وسير الحوادث فيهما ، وقد عارضوا تدخل الإنجليز والحكومة البريطانية في شؤون هذه الجزيرة ،

---

(١) راجع ديوان شعره ، وقد اقتبس منه شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال شطر بيت في القصيدة التي قالها على قبر السنائي في « غزنى » وهو قوله : « كرفته جينيان أحرام ومكى خفته دربطحا » .

وفي الحرمين الشريفين ، معارضة شديدة عرضتهم لسخط الحكومة الإنجليزية في الهند وتهديداتها ، وأثارت حيرة مواطنيهم الهنادك ، واستغرابهم وتهكمهم في بعض الأحيان ، فلم يبالوا بكل ذلك ، وشكلوا جمعيات للدفاع عن الحرمين الشريفين وجزيرة العرب وحريتها وسلامتها ، ولا يزال بيت شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال يدور على الألسنة والأقلام ، معناه :

« يجب أن يكون المسلمون صفاً واحداً لحراسة الحرم ، من شاطىء النيل إلى أرض كاشغر » .

بالعكس من ذلك كان الغربيون ، وفي مقدمتهم القسوس والمستشرقون ، شديدي التخوُّف من ارتباط قلوب المسلمين في العالم بهذا المركز الإسلامي العالمي والتفاف المسلمين حوله واهتمامهم بقضاياه وشؤونه ، شديدي الكراهة له ، وتحذير الحكومات الغربية له ، جاء في تقرير مؤتمر مبشري البلاد الإسلامية من البروتستانت الثاني العام في مدينة لكهنؤ ، الهند في يناير سنة ١٩١١م ما يلي :

« وتكلم بعده (يعني بعد القسيس ورتز) سيمون عن حركة الجامعة الإسلامية في ماليزيا ، فقال : « يزعم بعضهم أن الإسلام في الهند تنقصه الحياة ، وأنه غير مرتب ، وأنه صبياني ، ولكن يجب علينا أن لا ننسى ارتباط الإسلام في الهند بمكة ، وهذا الارتباط يدعو سكان جزائر ماليزيا إلى الاعتقاد بأنهم جزء من مجموع كبير . . »[١] .

---

(١) راجع « الغارة على العالم الإسلامي » تأليف أ. ل. شاتليه . تلخيص وترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب ص١٠٥ .

وقد تكلَّم في هذا المؤتمر القسيس ورتز عن الجامعة الإسلامية في أفريقيا ، فقال : « إن مدينة مكة والطرق الصوفية هما من أكبر العوامل على بث شعور الوحدة بين المسلمين ، والنفرة من كل شيء غير إسلامي »[1] .

وجاءت في تقرير هذا المؤتمر الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦م كلمة وليم جيفورد بالكراف ، ما نصها : « متى توارى القرآن والمدينة ومكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه »[2] .

وعدل هؤلاء المبشِّرون والقسوس والمستشرقون ـ ومن كان على رأسهم من قادة الفكر وولاة الأمور في الغرب ـ بعد تجارب مريرة دلَّت على شدَّة حساسية المسلمين للاستيلاء المباشر على المركز الإسلامي والحجاز والحرمين ، والسيطرة عليه سياسياً وإدارياً ، عن فكرة الحكم المباشر والتدخل السافر الواضح في شؤون هذه البلاد ، إلى ما حوله بث النفوذ الفكري والثقافي ، والعلمي والأدبي والحضاري ، في الجزيرة والبلاد المقدسة ، وذلك عن طريق منظمة يونسكو والأخصائيين في العلوم والآداب والفلسفة والاجتماع ، والأساتذة والمعلمين ، والخبراء الفنيين ، وعن طريق المؤتمرات الثقافية ، والندوات العلمية ، وعن طريق البعثات الطلابية ، التي تؤم الغرب وتتلمذ على أساتذة الجامعات الأوربية والأمريكية ، وتنهل من مناهل الثقافة الغربية ، وعن

---

(١) نفس المصدر ص١٠٢ .
(٢) أيضاً ص٥٥٠ .

طريق التخطيط المدني والتعليمي ، الذي يجري تحت إشرافهم أو بتوجيههم ، فكان ذلك أخفى من دبيب النمل ، ولم يبلغ المسلمون ـ مع الأسف ـ من الوعي واليقظة والفطنة ما ينبههم على دقة هذه السياسة وخطرها ، فلم يحرك ذلك ساكناً في المسلمين ، ولم يثر فيهم انتباهاً أو اهتماماً ، وكان له تأثير بعيد المدى عميق الجذور في الحياة والمجتمع .

والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يعتبرون الجزيرة العربية كلها حلقة واحدة وامتداداً لرسالة واحدة ، ولدعوة واحدة ولمائدة واحدة ـ إذا صح التعبير ـ فلا يشعرون وهم في بقعة من بقاعها بأنهم في حاشية من حواشي هذه الجزيرة بعيدة عن قلبها وعن مركزها ، بل يشعرون بأنهم واقفون في ظل الكعبة وفي رحاب البيت العتيق ، فهذه الجزيرة كلها في تاريخها الجديد الذي يبتدىء من ظهور الإسلام ، وحياتها ونهضتها الحقيقية ، تدين لمكة وبالأصح لابن مكة الخالد الذي حمل الأمانة المقدسة وأوثر بالرسالة الأخيرة : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ﷺ ، وكان كثير من السلف إذا وقع بصرهم على أول قطعة من هذه الجزيرة وهم في طريقهم إلى مكة ـ وكان الزمن زمن السفن الشراعية ـ ولو كانت قطعة قاحلة ليس فيها ما يستهوي القلوب ويفتن العيون ، خرُّوا لله سجداً يحمدون الله تبارك وتعالى على أنه فسح في حياتهم حتى نالوا هذه السعادة وأقروا عيونهم برؤية بلاد العرب ، وقد كانوا يعتبرون هذه القطعة الأرضية قطعة من قلوبهم[1] . .

---

(١) مقتبس من محاضرة للعلامة المؤلف ألقاها في مسجد علي بن أبي طالب =

وبصرف النظر عن هذه الصلة العاطفية الإيمانية بين المسلم وبين جزيرة العرب ، فإن جزيرة العرب هي السور المنيع الحافظ حول الحرمين الشريفين وحول الحجاز ، فلا بد أن يكون بعيداً عن التدخل الأجنبي وعن وجود العناصر ـ سواء كانت جسدية أو معنوية ـ التي تهدِّد وحدة هذه الجزيرة الدينية ، لذلك كانت الوصية النبوية بحماية الجزيرة عن اختلاف الديانات والملل غير مقصورة على الحجاز بل كاملة شاملة للجزيرة كما مر سابقاً .

فسدت الأوضاع في أوائل هذا القرن (الميلادي) واختلت الأمور في مركز الإسلام وفي الحجاز والحرمين ، وخضعت هذه البلاد المقدسة للنفوذ الأجنبي ـ الإنجليزي بالتحديد ـ في حكومة الأشراف ، واضطرب الأمن ، وأطبق الجهل ، وضعفت العقيدة ، وشاع كثير من العادات الجاهلية ، وعم الفقر ، وانتشرت الفوضى ، وصعبت ممارسة فريضة الحج وشعائره وأركانه ، لاختلال الأمن ، ووعورة الطرق ، وقلة الماء ، والغارة على قوافل الحجاج[1] ، وصعوبة وصول الميرة والزاد ، وعجزت الحكومة ، وضعفت الإدارة ، حتى كان الحجاج يشعرون ـ إذا خرجوا من بلادهم للحج ـ بأنهم يخوضون معركة حربية ، فيوصون أولادهم بما يهمهم كما يوصي الخارج إلى ساحة القتال ، وقد

= في الشارقة في ٥ من محرم سنة ١٣٩٥هـ نظمتها وزارة الأوقاف في الشارقة وطبعت في رسالة مفردة بعنوان « خليج بين الإسلام والمسلمين » .

(١) تحقق عند العلامة المؤلف أن الإنجليز كانوا يوزعون السلاح ، ويهربونه إلى الحجاز ليشوهوا سمعة الحكم التركي ، ويبرهنوا على فساده وعجزه عن إقامة الأمن في البلاد المقدسة .

نشأ الجيل الجديد في هذه البلاد على الجهل والفقر ، والانقطاع عن العالم ، والتضايق من الحياة .

فكان من خفي تدبير الله تعالى ودقيق صنعه أن قيَّض آل سعود لإصلاح الأوضاع وإقامة الأمن ، وإنشاء الطرق ، وترفيه البلاد ، وتعليم الأولاد ، وإقامة حكومة قوية ، وإدارة حازمة ساهرة ، وتأمين الطرق وحراسة الحجاج القاصدين لبيت الله ، المقيمين في ضيافة الله ، وإجراء العيون الدافقة بالماء وتعميمها ، واستخدام الوسائل الحديثة والمستحدثات الصناعية لتذليل العقبات وتسهيل الحياة ، وتوفير المواد الغذائية إلى حد لم يخطر بالبال ، ولم يصوره الخيال قبل عقود من السنين ، وكان هذا البيت السعودي قد قام على الدعوة إلى التوحيد ، ومحاربة الشرك والإصلاح الديني والخلقي والاجتماعي ، ونادى به ، ورفع شعاره وضحى في سبيله ، وجازف بحياته وشرفه .

فتوجه المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود سنة ١٣٤٢هـ (١٩٢٥م) إلى الحجاز منظماً وإدارياً ، ومؤسساً لحكومة كبيرة وملك الحجاز ، وضبط الأمور ، وأقام الأمن ، وأمن الطرق ، وقضى على البدو الوحوش المفترسين للحجاج الآمنين الوادعين ، وأخذ على يد الظالم ، ونفذ الحدود الشرعية ، وأخرج للناس نموذجاً من البساطة والمساواة ، والتقشف في الحياة ، وأتى بأعمال جليلة تجلَّت فيها عبقريته ، وعصاميته كحاكم وإداري وأعجب بها كل من رزق الإنصاف ، واعترف بها كبار المفكرين والمؤلفين من الشرقيين والغربيين .

وكانت بارقة أمل انتعشت بها قلوب المسلمين في العالم الإسلامي

بصفة عامة ، وقلوب المسلمين في الهند بصفة خاصة ـ الذين كان هم الحجاز الشغل الشاغل والمقيم المقعد لهم ـ فحمدوا الله على ذلك ، ورحَّبوا بهذا التطوُّر في شؤون الحجاز في حماس ونشوة .

وكان في مقدمة هؤلاء المستبشرين من يلتقي مع الحكم الحديث في الحجاز على عقيدة التوحيد النقي الخالص ، ونبذ الشرك والبدع ، وتطهير الدين مما التصق به من الجهل والخرافة والعادات الجاهلية ، وقد نشأ كاتب هذه السطور في هذه البيئة الدينية ، وعاش هذه الفترة الزمنية التي كان الحكم السعودي فيها في الحجاز حديث النوادي والمحافل ، ولا يزال يذكر السرور الذي كان يغمر قلوب المسلمين في ذلك الوقت ، والآمال الكبيرة البعيدة التي كانوا يعقدونها بهذا التطوُّر الجديد الذي حدث في الجزيرة وفي الحجاز ، وكان لهم كلُّ حقٍّ في ذلك ، فقد قامت في الحجاز حكومة اقترن تاريخها بتاريخ الدعوة والجهاد والتضحية والتقشف في الحياة ، وبتاريخ الدعوة التي بدأها المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه ، التي كان لها الفضل في إيجاد الحماس الديني ، الذي كان دائماً أمضى سلاح وأقوى عامل في الحروب والغزوات ، وإنشاء الدول والحكومات ، ورافقها تأييد آل الشيخ العلماء الأجلاء في كل مرحلة من مراحل تاريخها ، وقامت على أكتاف الدعاة المجاهدين ، وعلى أشلاء الشهداء المغامرين .

كل ذلك حمل كثيراً من المخلصين المحبين للبقاع المقدسة على أن يدعو لهذه الحكومة بالتوفيق والتأييد ، ويبذلوا لها أفضل ما عندهم من نصح وإخلاص ، وعلم وتجربة ، وطاقة ومقدرة ، فقد واجهت هذه

الحكومة الوليدة التي خرجت من قلب الصحراء إلى بلد هو ملتقى العالم الإسلامي ومحطُ أنظار العالمين : الشرقي والغربي ، وكانت تواجه تجربة من أدق التجارب في الحكم والإدارة ، والاجتماع والحضارة ، وكانت في مرحلة انتقالية ، من أدق مراحل الانتقال في تاريخ الحكومات والحضارات ، فضلاً عن تاريخ الأسر والبيوتات : تجربة التغلب على المشاكل السياسية والإدارية والاقتصادية ، والاتصال بالحكومات المجاورة المختلفة ، في سياستها واتجاهاتها ، تجربة الاقتباس من الحضارة الغربية والعلم الحديث ، والجمع بين روح الدين وجوهره ، والخصائص الإسلامية العربية ، والبساطة التي عرف بها العرب ، وبين روح العصر ومقتضياته .

وكان يتوقف على نجاح هذه التجربة نجاح العملية الإسلامية في الحكم ، ومواجهة هذه الحضارة ، وسلامة هذه البلاد المقدَّسة ومحافظتها على شخصيتها الفريدة ، فكانت في حاجة ملحَّة إلى مفكرين إسلاميين يجمعون بين الإخلاص لهذه البلاد ، وبين حصافة الرأي وعمق الفكر ، والتجرُّد من الأغراض والفوائد الشخصية أو الوطنية أو الإقليمية ، وقد قام بعض كبار القادة والفضلاء والمصلحين والمؤلفين ، بتأدية هذه الرسالة في أساليبهم ومناهجهم الخاصة ، يستحقون عليها الجزاء من الله ، والشكر من كل من يهمه أمر الإسلام والمسلمين في هذا العصر ، ولكنه حق على كل مسلم ربط الله مصيره بالإسلام وربط مصير الإسلام بهذه البلاد المقدسة ، وقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الدين النصيحة ، قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه

ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[١] .

إن هذا الحق يحمل كاتب هذه السطور على أن ينشر ما وفقه الله له من كتابة رسائل إلى ملوك هذه الأسرة الكريمة العظيمة التي لها حق وفضل على كل مسلم يحب الله ورسوله ، ويحب هذه البلاد المقدسة ، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين ، رائد التضامن الإسلامي ، الملك الشهيد المغفور له جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز عليه رحمة الله ، وأصحاب السمو الملكي أمراء هذا البيت ، وأصحاب المعالي وزراء هذه المملكة العزيزة ، وكبار المسؤولين ، وقادة الرأي في البلاد العربية السعودية ، وما ألقاه من محاضرات في مناسبات مختلفة ، من مؤتمرات وندوات ولجان ، قياماً ببعض الواجب وتسجيلاً لهذه الانطباعات والملاحظات ، التي لولا نشرها في هذا الكتاب المفرد ، لبقيت مطمورة في الصحف والأوراق ، وذهبت أدراج الرياح ، ولعلها بهذا الطريق تجدِّد الذكرى ، وتثير الاهتمام ، وتلفت النظر من جديد ، وتدلُّ على مدى ما تتمتع به هذه البلاد من حرية إبداء الرأي ، وتقبُّل ما يأتي من مخلص لا يبتغي به غير وجه الله ، بقبول حسن ، وصدر رحب .

وقد وفق كاتب هذه السطورة لكتابة رسائل إلى عدد من أمراء جزيرة العرب أيضاً في الخليج والكويت ، ولفت نظرهم إلى ضرورة التمسك بحبل الإسلام والتشبث بنبوة محمد ﷺ الذي أعز الله به العرب ومنح ما منح من دين ودنيا وسعادة وكرامة وأن يكون دورهم في الانتفاع

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه .

بالوسائل الحديثة والثروات النابعة من أرضهم ، دور الأصالة والتجديد ، لا دور التطفل والتقليد ، وضرورة صيانة أطراف هذه الجزيرة وما يلونه من بلاد ، وما يحكمونه من إمارات وحكومات ، عن النفوذ الأجنبي وعن وجود المعابد لغير المسلمين في ربوعها ، وعن تفاقم شأن الجاليات غير الإسلامية ، فإنه سيحدث مشكلات طريفة معقدة لا يجدون لها حلاً ، فكتب إلى بعض أمراء الخليج وأمير دولة الكويت ، وضاعت أصول أكثر هذه الكتب إلَّا كتاباً كتبه إلى صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير دولة الكويت سابقاً حين كتبت له زيارة هذا القطر لأول مرة في شعبان سنة ١٣٨١هـ ، ورأى إلحاق هذا الكتاب التاريخي إلى هذه المجموعة التي تحتوي على الرسائل الموجهة إلى ملوك المملكة العربية السعودية وأمرائها ووزرائها ، إكمالاً للغرض وإتماماً للفائدة .

ونختم الكتاب بحديث أذيع من دار الإذاعة السعودية بمكة المكرمة سنة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م بعنوان : « من العالم إلى جزيرة العرب » فقد تلخص فيه شعور المسلمين في العالم عن مركز هذه الجزيرة ورسالتها ومسؤوليتها .

ولا بد من الاعتراف هنا والتسجيل لوجه الحق والتاريخ والأمانة ، أن كاتب هذه السطور لقي في كل هذه المراسلات والأحاديث الشفاهية ، كرم أخلاق ، ورحابة صدر ، وسعة أناة وصبر ، وبِشْراً يفيض على الوجه ويغمر المتحدث ويشجعه على الصراحة والاسترسال في الحديث ، وقد كان جلالة الملك فيصل الشهيد قد بلغ الغاية في ذلك ، وقد أطلق العنان ـ بما فطره الله عليه من أخلاق إسلامية وسجايا

عربية وخصائص قيادية ـ لهذا الكاتب في الكتابة والحديث يفضي بما في صدره ، من غير تهيُّب أو تلكؤ ، ومنح له الحرية التي لا تتصور فوقها ، ونحلِّي جيد هذا الكتاب بكتاب من جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز رداً على الكتاب الذي كتب في ١٥/١٢/١٣٨٤هـ ، وجاء في هذه المجموعة تزييناً لهذا الكتاب ، ولأنه يعرب عن وجهة نظره رحمه الله وعهده وميثاقه مع الله ، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء وطيَّب مثواه .

وبهذا الشعور من الامتنان ، وبهذا الفيض من الاعتراف وبهذا النور من الأمل والرجاء ، ننشر هذه الرسائل والمحاضرات والكتابات لأول مرة ، والله ولي التوفيق ، ومنه الهداية إلى سواء الصراط وأقوم طريق .

أبو الحسن علي الحسن الندوي
دار عرفات ، دارة الشيخ علم الله
رائي بريلي (الهند)

٢٩/ شوال ١٣٩٧هـ ـ ١٤/ أكتوبر ١٩٧٧م

* * *



حاجة البشرية وتوقها إلى حكومة
تقوم على مبدأ الهداية والخدمة ، وأثرها في الحياة والأخلاق ومصير الإنسانية

من كتاب إلى صاحب السمو الملكي الأمير
سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية
السعودية سابقاً

[زار مؤلف هذا الكتاب الحجاز والحرمين الشريفين لأول مرة في سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧م) حين وفقه الله للحج ، وطالت إقامته في الربوع المقدسة ، فمكث ستة شهور يقضي لبانته من حضور الحرمين الشريفين ، والصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف ، ويتَّصل بمختلف الطبقات ، ويدرس الأوضاع والحياة اليومية ، ويحتكُّ بالشعب ، ويحضر المجالس المختلفة ، وقد أعجب بما وفقت له الحكومة السعودية ـ وعلى رأسها رائدها العصامي الملك عبد العزيز بن سعود ـ من إصلاح للأوضاع الكثيرة ، وتنظيم للإدارة والبلاد .

وكانت الحكومة والبلاد في ذلك الحين تجتاز مرحلة انتقالية من البساطة والتقشف إلى التوسع الحضاري ورفاهية البلاد ، وتقليد الحكومات الزمنية ، وقد بدت طلائع هذا التحوُّل في البلاد والمجتمع ، فرأى من واجبه ـ كمسلم مخلص لهذه البلاد ومستقبلها ، وكدارس للتاريخ وفلسفته ، وطبائع الأمم والحضارات ـ أن يلفت نظر

الذين يملكون زمام الأمور ، وقادة البلاد في المستقبل ، إلى مسؤوليتهم ، ويفضي إليهم بالأسلوب الذي يفكر فيه من يهتم بأمر الإسلام والمسلمين ، ويحبُّ هذه الحكومة ويقدِّر ما وفقت له ، من إصلاحات كبيرة ، وحققته من إنجازات خطيرة ، فرأى أن يخاطب بذلك ولي عهد المملكة يومئذ : صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز ، فكتب رسالة ضافية إليه ، وهو يودع الحجاز ويركب الباخرة عائداً إلى الهند وذلك في غرة ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ (١٣ من يناير ١٩٤٨م) وأرسلها إلى صديقه ومحبه الكبير : سماحة الشيخ عمر بن الحسن آل الشيخ رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الرياض ، وكان أخص مرافقي سمو ولي العهد وبطانته ، وقد أخبره الشيخ بأن سمو ولي العهد اطلع على هذه الرسالة ، وعلى ما تحتوي عليه ، وقد نشرها الكاتب كرسالة مفردة أسماها « بين الجباية والهداية » في سنة ١٩٤٩م ، وهي الآن داخلة في كتابه المشهور « إلى الإسلام من جديد » وهذه القطعة مقتبسة منها] .

كانت المدن الإسلامية الكبرى وعواصم الإسلام في العهد الإسلامي الأول ـ وفي مقدمتها وعلى رأسها جزيرة العرب والحجاز ـ مركز دعوة وهداية ، بحيث إذا دخل الإنسان عرف أنه يمشي في مركز الإسلام ويتنفس في جوه ، فيرى الحدود قائمة وأحكام الشرع نافذة ، ولا يجد أحداً يتهاون في أمر من أمور الدين ، ويستخفُّ به ، أو يجاهر بإثم ومعصية ، ولا يرى بدعة ولا فجوراً ، ولا دعارة ولا خدعة ، ولا يسمع برشوة ولا خيانة ، ولا ما ينافي روح الإسلام ، ويسمع الدعوة إلى الله وإلى الدار الآخرة ، وإلى الفضيلة والتقوى ، واتباع الكتاب والسنة ، والاجتناب من الشرك والبدعة ، والتمسك بفضائل

الدين في كل مكان، ويرى العمل بذلك في الطرقات والمجامع، وبيوت الناس ودواوين الحكومة ، فيتشبع بروح الدين ويتضلع إيماناً وحماسة وفقهاً في الدين ومعرفة بأحكامه وشرائعه وحباً لأهله ، فلا يخرج إلا وقد استفاد الإيمان والعلم والتصلُّب في الدين والثقة برجاله وممثليه .

وإذا دخلها أجنبي أو حديث عهد بالإسلام ، عرف مزايا الحياة الإسلامية وفضل حكومة الإسلام ، وآثر الإقامة فيها ، وكره أن يفارقها ، ويعود إلى دار الكفر كما يكره أن يقذف في النار .

أما الحَرَمان فقد كانا في حكومة الإسلام ـ المؤسسة على مبدأ الهداية ـ مدرسة الدين ومهد الحضارة الإسلامية ، تتمثل فيهما الحياة الإسلامية بكمالها وجمالها ، ويأتي إليهما المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، ومن كل فج عميق ، فيشهدون منافع لهم ويتفقهون في الدين ، وينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم ، ويحتجون في بلادهم بما رأوه في الحرمين ، فيكون ذلك حجة لمحافظة الحجاز على الدين والسنة ، وحرص حكومتها على تمثيل الحياة الإسلامية في مركز الإسلام ومنبعه .

ثم أتى على المسلمين حين من الدهر نسوا أن الحكومة في الإسلام لم تكن إلا جائزة الدعوة والجهاد في سبيلها ، ولولا رسالة محمد ﷺ ودعوته إلى الله ، وما لقي في مكة والطائف من قريش والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء في غار ثور ، والرباعية المكسورة يوم أحد ، ولولا ما صنع بحمزة يومئذ ، ولولا قتلى بئر معونة ومصلوب الأنصار[1] ،

---

(١) هو خبيب بن عدي بن مالك الذي قتله بنو الحارث بن عامر وبضعوا لحمه =

لما دانت الدنيا للعرب ، ولا كانت دمشق ولا بغداد ، ولا كان لبني مروان أن يجبوا خراج الروم وفارس ، ولا كان للرشيد أن يقول لسحابة مرت به « أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » .

أسس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة ، دولهم على مبدأ الجباية السياسية ، وأهملوا الدعوة إلى الله وإلى دار الإسلام ، وعطلوا الحدود وأبطلوا الحسبة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ولم تعد مراكز الإسلام مدرسة الدين ومرآة لمدنيته واجتماعه بل أصبحت تغرس الشك والنفاق في قلوب الوافدين ، وتزعزع عقيدتهم وثقتهم بالدين وأهله ، وأصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي يكتسبون منها استخفافاً بشعائر الإسلام ، ورقة في الدين ، ووهناً في العمل ، وسوء ظن بممثلي الإسلام ، ورجعوا يحتجون بالأوضاع الفاسدة في مراكز الإسلام ، وبالفوضى الدينية ، فكانت داهية عظيمة على رجال الإصلاح والدعوة في الأقطار الإسلامية وفتنة كبيرة . . ليس العالم الإسلامي اليوم أشد افتقاراً إلى شيء منه إلى حكومة تمثله تمثيلاً صحيحاً ، وتقوم على أساس الدعوة ، والهداية والنصيحة والخدمة ، فإن الإسلام لا يؤثر في عقول الناس ، ولا يشفي المتفحصين حتى تكون له رقعة في الأرض ، تتمثل فيها حياته وتتجلّى فيها مدنيته واجتماعه ، وتظهر فيها نتائج دعواته وتعاليمه ، فإذا كان ذلك ولو في رقعة صغيرة ، كان على الإسلام إقبال عظيم لم يعهد من قرون .

= وحملوه على جذعه وهو القائل :

ولست أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً   على أيِّ جنب كان في الله مصرعي

وليس العالم الإنساني أقل افتقاراً من العالم الإسلامي إلى مثل هذه الحكومة التي شعارها الهداية والإصلاح ، لا الجباية والكفاح ، فإن الإنسانية العليلة الجريحة لا يسعفها اليوم إلا قيام هذه الحكومات التي تؤسس على أساس الفضيلة والدين ، واحترام الإنسانية ، وإيثار الأرواح على الأرباح ، والأخلاق على الأعلاق ، وكسب الرجال على كسب الأموال ، فإذا تأسست هذه الحكومة ـ مهما كانت صغيرة ومهما كانت مواردها ضعيفة ـ كان ذلك حادثاً غريباً يستحق كل تنويه وإشادة ، وقام كبار السياسيين وأصحاب اليراع ، وقادة الفكر يشيرون إليها بالبنان ويضربون بها الأمثال ، ويؤلفون عنها مؤلفات ، وأصبح الناس يأوون إليها كما يأوي الغرقى إلى جزيرة في البحر ، لينعموا في ظلّ حكومتها ، وينفضوا عنهم غبار الظلم والفتن ، ويتنفَّسوا من متاعب المدنية المعقَّدة المزوَّرة ، والحكومات الجابية الجائرة ، ولكانت هذه الحكومات غرة في جبين الدهر ، وشامة بين الحكومات والدول .

إن الإنسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف أنواعها وأسمائها ـ من شخصية وديمقراطية ، ورأسمالية واشتراكية وشيوعية ـ فوجدتها بنات علات ، لا تختلف في أصلها ومبدئها وروحها ونزعتها ، وقلبتها على كل جانب فلم تر منها إلا شراً ومراً ، ولم تر اختلاف الأسماء يغني عن شيء ، وإذا تأسست جديدة باسم جديد ، نادى لسان الحقيقة في لفظ أبي العلاء المعري :

ألا إنمــا الأيــام أبنــاء واحــد وهــذي الليــالــي كلهــا أخــوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي مرت به السنوات

وإذا ضمت إلى هذه الحكومات المعدودة بالمئات حكومة جديدة

لا تختلف عن أخواتها إلا أنها يرأسها مسلم أو يديرها عدد من المسلمين ، لم تكن بدعاً ولم تكن شيئاً طريفاً ينوَّه به أو يشار إليه بالبنان ، أو تعقد به الآمال ، فإن هنالك حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات في طول مساحتها ، وضخامة ميزانيتها وكثرة إنتاجها ، وإصدارها ، وفي جيشها وأساطيلها ، وبوارجها الحربية وعدد الطائرات ، وكثرة المصانع ، ورقي الصناعة والتجارة ، واحتفال المدنية والحضارة ، وحسن الإدارة ، وانتشار العلم في طبقات الشعب وقلَّة الأمية ، إلى غير ذلك مما تمتاز به الحكومات الأوربية .

إن قيام دولة للمسلمين في بقعة من بقاع الأرض فرصة سعيدة نادرة لا تسنح في كل حين ، ومثل هذه الفرص ـ كما يعرف المطلع على السنن الإلهية وعلى تاريخ الأديان والدعوات الإصلاحية ـ قد تسنح بعد قرون ، وتكون من فلتات الدهر ، وفي قصرها كوميض البرق في ليلة مظلمة ، وتكون امتحاناً عظيماً لرجالها ، كيف يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية ، وراحتهم ولذائذهم ، فإذا انتهزوا هذه الفرصة وعرفوا قيمة الوقت ، وأحسنوا تمثيل هذه العقيدة والدين ، الذين ينتسبون إليه ، وحسن ظن الناس بهم ، وصدقوهم فيما يقولون فقد خدموا دينهم وأنفسهم خدمة باهرة ، وإن كان غير ذلك فأساؤوا استعمالها واستغلوها لمصالحهم الشخصية على حساب الدعوة الدينية ، ورجالها المخلصين وجهودهم في سبيل نشر هذه الدعوة ، وقيام هذه الحكومة ، كما فعلت الدولة الأموية والعباسية ودول كثيرة ، فقد ضيَّعوا الفرصة وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدعوة التي وصلت أسبابها بأسبابهم دورها ، وما يعلم أحد متى يعود هذا الدور ، وهل يعود أوْ لا ؟ فقد شهد التاريخ أمماً وجماعات

كثيرة ضيعت فرصة حكمها وسلطانها ، ولم تنتفع بها ، وانتهى دورها القصير أو الطويل فوقفت مع المتفرجين المنعزلين وبقيت تنتظر دورها في حلبة الأمم ، وتعض على تفريطها بنان الحسرة والندم .

هذا وإلى الحكومات الإسلامية ومن كان على رأسها أن ينتهزوا الفرصة ويحرزوا قصب السبق ، ويبلغوا بهمتهم وعنايتهم إلى حيث لا يبلغ إليه كبار الصالحين والأتقياء بعبادتهم وزهدهم وذاك بما آثرهم الله من حول وطول ، ونفوذ وسلطان ، وفرص لا تتأتى لغيرهم ، ولهم أن يصلوا في خدمة هذا الدين وإعادة شبابه ، وإصلاح المجتمع وتغيير اتجاهه من الجاهلية إلى الإسلام ، في يوم واحد ، ـ إذا أرادوا ذاك وصحَّت عزيمتهم وصدقت نيتهم ـ إلى ما لا يصل إليه المصلحون ، والمؤلفون والعاملون ، في أعوام وقرون ، وينالوا من رضا الله وثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، ما يغبطهم عليه كثير من العبَّاد والمتَّقين ، وعباد الله الصالحين .

وما أطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدِّد الكبير والخليفة الراشد إلا بتغيير مجرى الحكومة من الجباية إلى الهداية ، والإصلاحات التي قام بها ، وبرجولته وعصاميته في سبيل مبدئه ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيم زائل ومتاع فانٍ ، وأنواع من لباس وطعام ، ودواب وأنعام ـ كان لابد أن يتركها يوماً من الأيام ـ لو وزن ذلك كله بما اكتسب من نعيم لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وما يرجو من مرافقة محمد ﷺ وأصحابه والالتحاق بحزبه وما جعل الله له من لسان صدق في الآخرين ، لرجح ما اكتسب رجحاناً واضحاً ، وعد من كبار الأذكياء وعقلاء العالم .

* * *

شخصية البلاد المقدسة الفريدة
ووجوب الاحتفاظ بها
في جميع المخططات المدنية والتربوية والمشاريع
التقدُّمية ووسائل الترفيه والتسلية

كتاب إلى صاحب السمو الملكي الأمير
فيصل بن عبد العزيز ولي عهد المملكة
السعودية ورئيس الوزراء سابقاً

[اتصل بكاتب هذه السطور ـ وكان يزور المملكة حيناً بعد حين حاجاً ومعتمراً ، وعضواً في مجالس علمية واستشارية ـ أن هناك تفكيراً في اتخاذ الوسائل الحديثة والمظاهر العصرية لترقية البلاد ترقية حضارية ، وترفيه أهلها والتوسع والانطلاق في مواد التسلية ، وتقليد الأقطار الغربية في مظاهر الحياة والمدنية ، ليكون ذلك علاجاً للتذمُّر الفاشي في ذلك العصر وفي كل مكان ، وشاغلاً للشعب السعودي عن التفكير الخاطىء ، والتسلي ببرامج الحكومات الغربية التي عرفت بالدعاية ضد المملكة العربية السعودية ومحاربتها ، ولم يعرف الكاتب مدى صحة هذه الأخبار ومدى الجدية في هذا التفكير ولكن أفزعه ذلك ، فرأى لزوم الحديث في هذا الموضوع مع كبار المسؤولين وولاة الأمور في المملكة .

وكان من حسن الحظ أن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن

عبد العزيز ولي العهد المعظم ورئيس الوزراء يومئذ ، زار المدينة المنورة في هذه الأيام ، فطلب الكاتب مقابلة له ، وطلب منه أن يسمح له بالحديث الخاص في جلسة خاصة لا يحضرها غيره وغير مُرافقه[1] . فقبله صاحب السمو وأصغى إلى حديثه في صمت وصبر من غير أن يقاطعه أو يبدي رأيه قبل أن يتم الحديث ، وذلك ما لا يتوقع من كبار المسؤولين والرؤساء فضلاً عن الأمراء والوزراء ، وكان الكاتب قد أعد رسالة ليقرأها الأمير على هدوء وطمأنينة ، وتبقى عنده كمذكرة ، فقدمها إليه وتصفحها الأمير فيصل بمحضر الكاتب ، ثم تكلم في ضوئها ، فأوضح بعض النقاط وأزاح بعض الشبهات ، وصرَّح بأن المملكة تعتبر نفسها أمينة لهذه الأمانة المقدَّسة ، وهي غيورة عليها وأنها لا تسمح بشيء ينافي العقيدة الإسلامية والمبادىء الخلقية ، مما لا يتفق مع الإسلام وتعاليمه ، وأنه يعتبر هذه البلاد قبلة المسلمين ومحط قلوبهم ، ويعتقد أن لكل مسلم حقاً في الغيرة عليها ، والنصيحة لقادتها والمسؤولين عنها .

وتتابعت رحلات المؤلف وزياراته للبلاد المقدسة ، وجدَّت شؤون وسارت البلاد والمملكة في طريق التطور المرتجل بضغط العوالم السياسية والاقتصادية والحضارية التي كانت تشتغل حولها فرأى ضرورة الاتصال بولاة الأمور وساسة البلاد ـ وفي مقدمتهم صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز الذي كان لا يزال ولي العهد ورئيس الوزراء ونائب جلالة الملك في الحجاز ، فكتب إليه الرسالة الآتية ـ

---

(١) كان مرافقه في هذه الرحلة والزيارة الأستاذ محمد الرابع الحسني ابن أخته والأمين العام لدار العلوم ندوة العلماء في لكهنؤ (الهند) .

وذلك في الثمانينيات الأولى بعد ثلاثمئة وألف من التقويم الهجري] :

حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز ولي العهد المعظم ورئيس الوزراء حفظه الله ورعاه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ! فأدام الله عليكم النعم التي أكرمكم بها ، ووفقكم لما فيه رضا الله ، وثناء المسلمين وشكرهم وطيب الذكر وخلود الأثر ولسان صدق في الآخرين ، وما هو وفاء وقيمة لمواهبكم العظيمة والفرص السانحة الكريمة التي منَّ الله بها عليكم .

إنه من المقرر المعلوم لديكم أن هذه البلاد ليست ككل البلاد التي ينظر في قضاياها ، ومدنيتها ، وتقدمها ، وترفيه أهلها ، وتنظيم معارفها ، وتوجيه الرأي العام فيها كأي بلد في الشرق والغرب ، إنها بلاد أراد الله وقضى أن تكون عاصمة الإسلام ومعقل الدين ، ومثابة لقلوب المسلمين ، وأنها مقدمة ووديعة من رسول الله ﷺ ، خرجت ببعثته من الظلمات إلى النور ، ومن الخمول والعزلة والانطواء والاختفاء في حاشية الأمم تحت ركام التاريخ ، إلى الشهرة والقيادة ، والمركزية في العالم ، وانتشرت لغتها وثقافتها في أوسع رقعة من الأرض ، وفي أطول مساحة من الزمن ، وفي أوسع دائرة وأكثرها تنوعاً من الشعوب والأمم .

فمما يقتضيه الدين والشعور بالأمانة والمروءة والشرف والاعتراف بالواقع التاريخي والعملي ومراعاة عواطف المسلمين المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها ، ومما تقتضيه السياسة الحكيمة أن يكون كل ما يقرَّر ويسنُّ ، ويدعى إليه ويسمح به في كل مصلحة من مصالح

الحكومة ، وفي كل ناحية من نواحي الحياة العامة ، خاضعاً لشخصية هذه البلاد الخاصة ورسالتها ومركزها في العالم والدعوة التي قامت بها في الماضي ، وعرفت بها في الحاضر وليتجنب كل التجنب عن كل ما ينافي عقيدتها ومبادئها ويرزؤها في شخصيتها ومعنوياتها ، مهما جر ذلك على هذه البلاد من النفع المادي ، وعلى أهلها من الترفيه والتسلية والخصب ، وإن هذه البلاد وقادتها أولى بهذه التضحية في سبيل المبدأ من الشيوعيين في روسيا والرأسماليين في أمريكا الذين لا يسمحون أبداً بما ينافي مبدأهم وسياسة بلادهم مهما صغر وتفه ، ومهما تضخَّم نفعه المادي وربحه المالي .

وقد يعتقد بعض الناس أن في هذا التوسع والانطلاق في مواد التسلية وتقليد الأقطار المتمدنة التي سارت وراء الغرب في أساليب التعليم وبرامج الإذاعة وتطبيق مظاهر الحياة الغربية مما لا تقدِّم ولا تؤخِّر في نهضة البلاد وقوتها ، ترفيهاً للشعب وتحقيقاً لمطالبه ، وعلاجاً للتذمر ، وشاغلاً له عن التفكير الخاطىء وتقدماً بالبلاد ـ ومع الأسف والاعتذار ـ لا أوافق على ذلك في ضوء التجربة والتاريخ ، فليس هذا هو العلاج ، ـ وماء البحر المالح الأجاج لا يزيد الشارب إلا عطشاً ـ إنما العلاج هو تحقيق العدالة الاجتماعية الإسلامية ، والتقدم بصناعة البلاد وتجارتها وإيجاد الوسائل الكفيلة للرزق الحلال ، والسير في طريق الاكتفاء الذاتي وكفالة البلاد لنفسها وإنشاء المصانع وترخيص الحياة وحاجياتها ، والتقليل أو التحديد من أسباب البذخ والكماليات والترفيه الكريم المشروع الذي ليس ضيقاً ولا محدوداً كما يعتقد من لا يعرف الشرع وطبائع البشر .

أما التقليد والتفكير المترهل الذي ينجرف مع التيار والذي لا مقاومة فيه ، والذي يخضع لكل دعاية ويسرع إلى تحقيق كل مطلوب فهو خطر على البلاد وخطر على الحكومة ، وهو ينشر في أقرب وقت التفسخ الخلقي والميوعة ، وضعف الشخصية الذي تعانيه البلاد الأخرى وقد أفلت الزمام من أيدي قادتها ومصلحيها فأصبحوا لا يملكون من أمرها شيئاً .

ثم إن هذا الاتجاه يفقد هذه البلاد حرمتها وقداستها وشخصيتها ويقطع صلتها عن الماضي ، ويحول بين هذه البلاد وقادتها ، وبين نصر الله ورحمته التي لا انتصار ولا عز ولا كرامة ، ولا سلامة ولا عافية بغيرها ، فالعدو قويٌّ ماكر لا يحترز من شيء في سبيل مراميه البعيدة ، وعزائمه الخبيثة ، وفيه الحرمان من أسباب نصر الله ورحمته التي لا غنى لنا عنها .

إن هذه البلاد لو سارت في هذا الاتجاه الذي يدعو إليه بعض الناس الاتجاه الذي سارت فيه مصر وسورية ، ولبنان ، من الحرية المطلقة والترفيه غير المحدود وغير المقيَّد بالشرع والأخلاق ، وسارت في اتجاه القومية كما يدعو إليه كثير في الخارج ، واعتبرت نفسها قطراً من الأقطار ، ودولة من الدول ومجتمعاً من المجتمعات البشرية الكثيرة ، ليست لها شخصية خاصة ، ولا رسالة ، ولا دعوة ، ولا حدود مستمدَّة من الشرع الإسلامي تقف عندها ، فإنها تصبح بلداً من البلاد الكثيرة التي لا قيمة لها في خريطة العالم ، ولا في هيئة الأمم ، وضاعت ـ لا سمح الله ـ الجهود التي بذلها أجيال المسلمين الأولى ، ولا قيمة لبلاد يترفَّه أهلها ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، ويموتون كما تموت

الحشرات ، ولا رسالة ولا دعوة ، ولا عقيدة ولا مبدأ ولا شخصية ، ولا خلق ، وفقدت احترام العالم الإسلامي وقيادته ورهبة أوربا وقادتها ، وإجلالهم ، والمكانة التي كانت تشغلها في التاريخ . وتستطيع ـ بقليل من الجهد والعزم ـ أن تشغلها في الحاضر ، إنه سقوط في الهمة وضعف في التفكير ، وجبن في الإرادة أربأ بنفس كل عاقلٍ عنه .

إنني كفرد يدين لهذه البلاد في دينه وعقله وثقافته أستحث هممكم ومواهبكم وما أكرمكم الله به من جاه ومنصب ونفوذ ، لمحاربة هذا الاتجاه الخطر ، إذا وجد في زاوية من الزوايا الخاصة والعامة ، وتجنيد جميع قواكم في سبيل حفظ شخصية هذه البلاد الإسلامية العربية ، وتوجيه التفكير والرأي العام ، والصحافة والإذاعة ، والأدب والمعارف ، إلى ما يغرس في نفوس الشعب وشبابه وجيله الناشىء الإيمان والحماس الديني والغيرة الإسلامية وحب الأخلاق والفضيلة ، وكراهة الإثم والفسوق والفحشاء ويرسي فيهم القيم الإسلامية ويجعلهم جديرين لحمل المسؤولية الكريمة العظيمة التي يرشحهم لها الإسلام وترشحهم لها هذه البلاد ، ومجال الدعوة والجهاد الذي أكرمكم الله به في هذه البلاد المقدَّسة لا يتيسَّر لكل أحد في كل بلد ، ولا يتيسَّر في كل زمان ، فأرجو جاهداً مخلصاً أن تنتهزوا هذه الفرصة ، وتؤدُّوا رسالتكم بالتنفيذ ، فإن البلاد العظيمة المقدسة لما يقع حولها من أحداث وتقلبات وبما يجيش فيها من بلبلة الأفكار واضطراب العقول ، تمر بمرحلة عصيبة دقيقة من أدق المراحل في تاريخها ، وإن اللحظة فيها اليوم تعد بشهور وأعوام ، وإن خطوة قصيرة تخطىء موضعها تنتقل بها إلى مسافة بعيدة لا يسهل الرجوع عنها ، وإن الحكومة ـ ولله الحمد ـ

تستمع وتصغي إلى كل كلمة مخلصة وتوجيه فيه سلامة البلاد وقوة الحكومة ومنفعة الإسلام وسعادة المسلمين .

وأعتذر عن هذه الكلمة الصريحة التي لم يحملني عليها إلا الإخلاص والولاء لهذه البلاد وحكومتها وطلب السلامة والعز ، والشرف للعرب وللمسلمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

أبو الحسن علي الحسني الندوي

أمين ندوة العلماء العام ـ لكهنؤ بالهند

* * *

تجربة التاريخ والأمم
في إخفاق سياسة إطلاق العنان في الحرية والتمتع ، والتسلِّي والترفُّه ، وأن الطبقة المؤمنة المستقيمة وحدها جديرة بالثقة والاعتماد

كتاب إلى جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز
ملك المملكة العربية السعودية

[بويع صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز ولي العهد ورئيس الوزراء بالملك ، بعد تنازل أخيه جلالة الملك سعود بن عبد العزيز عن العرش ، ٢٧جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ (٢/ ١١/ ١٩٦٤م) وأخذ في يده زمام الأمور في عزم وحزم وحكمة في ساعة دقيقة تعرضت فيها المملكة لخطر كبير ، وواجهت أعداء أقوياء أجرياء ، لا يتحرزون عن دنيئة ولا يخافون في مؤمن إلَّا ولا ذمةً ، فتغلَّب في مدة قليلة على هذه المشاكل ، وخيَّب المخططات العدائية والمؤامرات الإجرامية وحاز الثقة وملك الإعجاب ، وبرز إلى العالم خادماً للحرمين الشريفين ورائداً للتضامن الإسلامي ، وحادباً على القضايا الإسلامية كلها في قوة ولباقة وألمعية، وأسند رابطة العالم الإسلامي بتأييده وعطفه الملكي ، وحنانه الأبوي ، ووجد فيه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها قائداً إسلامياً، وملكاً مؤمناً، غيوراً على المقدسات الإسلامية، موجهاً للشعب والجاليات الإسلاميات إلى ما فيه خير لها ولبلادها .

وكان كاتب هذه السطور من الأفراد السعداء المعدودين الذين حازوا ثقة جلالة الملك وأنس بهم ، وفسح لهم مجال الحديث في وحدة وانفراد ، ومنحهم فرصة اللقاء والحديث مرة بعد مرة ، فانتفع كاتب هذه السطور بهذه الثقة الغالية ، وانتهز هذه الفرص الثمينة للإفضاء إلى جلالة الملك بذات صدره ومكنونات ضميره ، وكان عضواً في المجلس التأسيسي للرابطة التي كان جلالة الملك يعطف عليها كثيراً ، ويمنح لأعضائها الحرية في الحديث في شؤون العالم الإسلامي وفي أوضاع البلاد المقدسة التي يقوم فيها مركز الرابطة ، ويرتبط مصيره بمصيرها .

وكان من ضمن هذه اللقاءات الكريمة الحبيبة التي لا ينساها كاتب هذه السطور ، لقاء معه في مكتب رئيس الوزراء في جدة في شهر ربيع الأول سنة ١٣٨٩هـ (يونيو ١٩٦٩م) قدم فيه الكاتب رسالة أعدها لهذه الجلسة الخاصة فقدَّمها بيده إلى جلالته وطلب منه أن يقرأها في هذا المجلس ، فقبل هذا الاقتراح وقرأها حرفياً ، ثم بدأ الكاتب يشرح النقط الرئيسية التي جاءت في هذا الكتاب ، ويبدي وجهة نظره في تفصيل ، وبحث معه جلالة الملك هذا الموضوع ، وأبدى عزائمه وخواطره ، وتقديره لهذه الملاحظات التي كان مصدرها الإخلاص والحب والغيرة على هذه البلاد .

وفيما يلي نص هذا الكتاب التاريخي] :

حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل المعظم حرسه الله ورعاه :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ! فقد ظل الملك المعظم يكرمني ، كلما طلبت ، بلقاء حر كريم ، وحديث صريح ، وأكرمني

كل مرة بحسن الاستماع والمذاكرة في الموضوع ، وقد رأيت في هذه المرة أن أكتب ما أريد أن أقول ، خوفاً من التقصير والعجز في الكلام ، ولتبقى هذه المذكرة عند جلالته ، وتكون موضع اهتمامه .

قد بدت الفتن تتقدَّم إلى الجزيرة العربية ، وإلى آخر حصن من حصون الإسلام ، والاستقرار والسلام ، فاغرة أفواهها مكشرة أنيابها ، وهي لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، ولا الاستثناء ولا التسامح ، قد بدأ كل بلد عربي ، بل إسلامي إلَّا النادر القليل ، يجرب الشيوعية أو الاشتراكية ، وأصبح تحت رحمة الحكام العسكريين ، والقادة الثوريين ، والزعماء الأنانيين ، وأصبحت الشعوب في براثن هؤلاء الثوار كعصفور بين أنياب الصقور القاسية الضارية ، لا تملك من أمرها شيئاً وقد بدأت الشيوعية تزحف إلى هذه المملكة من أربع جهات ، من الجهة الشمالية ، ومن الجهة الجنوبية ومن جهة الغرب ، ومن جهة الشرق ، هذا ما عدا أنصارهم وروادهم ، الذين يعملون في الخفاء ويهيئون العقول والنفوس لقبول هذه الفلسفات الهدَّامة ، في مجال التربية والثقافة ، والكتابة والتأليف والإعلام والإذاعة .

وقد أخفقت كل تجربة لتلهية الشعب بالترفيه والتسلية وفيض من آلات الرخاء وإطلاق العنان في إرضاء الغرائز ، وتحقيق المطالب ، وإمدادها بأكبر قسط من التمتع ، ورفع مستوى الحياة ، من عهد بني أمية فالعهد العباسي إلى هذا العهد في كل بلد من بلاد المملكة الإسلامية الواسعة ، وفي كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي الطويل ، فلم تحمل هذه السياسة ـ المعتمدة على توجيه طبيعة القلق والطموح المودعة في الإنسان ، من التفكير في القضايا العامة ، والأوضاع

السياسية ، إلى التفكير في التهام اللذات ، وانتهاب المسرات ، وانتهاز فرصة الحياة ـ الشعوب على الشكر والامتنان ، والتقدير والاحترام ، بل كانت هذه الشعوب التي أغدقت عليها النعم ، وعاشت بين روح وريحان ، وإطراب وألحان ، من أسبق الأمم إلى جحود النعمة ، ونكران الجميل ، وأكثرها كنوداً وقسوة على الأسر الحاكمة ، الرحيمة السخية ، والحكومات المتسامحة ، فانتهزت أول فرصة للثورة عليها ، وقلب الأوضاع ، وعاملت المحسنين شر معاملة عرفها التاريخ ، وهذه طبيعة المادية الانتهازية الأبيقورية التي لا تعرف المفاهيم الدينية ، والقيم الخلقية ، ولا تعرف المعاد والحساب ، وهي حكاية مطَّردة وتمثيلية متكررة في جميع أدوار التاريخ ، كذلك كان في آخر دور الأمويين وفي نهاية الخلافة العباسية ، وعندما بلغت المدنية ذروتها في حكومات الشرق والغرب ، وكذلك كان في مصر وسورية ، وفي العراق بالأمس القريب ، وفي السودان قبل أيام ، فلم تنفع هذه الفرص السخية المتاحة للشعب ، وهذه الفيضانات من أسباب الترفه والتسلِّي والتمتُّع والتلهِّي ، فرحبت هذه الأمم بكل ناعق ، وانتهزت أول فرصة للانقلاب .

وقد تحقق أن الإيمان العميق والاستقامة الخلقية والاقتصاد في الحياة ، والتقشف والقناعة في المعيشة ، وباختصار وصراحة : إن تقوى الله وخشية الحساب ، والحياء والوفاء والأمانة ، بالمعنى الواسع ، هي الخلال التي تمنع عن الجحود والكنود ، والقلق الدائم والغدر والخيانة وعبادة القوة أينما وجدت ، والترحيب بكل جديد وارد ، وزاحف مارد .

وأعتقد ـ والإشفاق والتألم يملأان جوانحي ـ أن فرصة العلاج الحقيقي الحاسم ، وفرصة صيانة هذه المملكة ، بما فيها من مقدسات وحصون للإسلام ، من هذه الموجة الطاغية التي بدأت تمتد إليها حانقة ثائرة ، ومن وقوع هذه الجزيرة فريسة سائغة لهؤلاء الثوريين الأنانيين ، الذين يهلكون الحرث والنسل ، ويجرِّدون البلاد من كل نعمة من نعم الدنيا والآخرة ، فرصة محدودة قصيرة جداً ، وأرجو عدم المؤاخذة إذا قلت : إنها آخر فرصة ، وعاهل هذه المملكة الذكي الألمعي هو خير من يعرف قصر هذه الفرصة ، وشدة هذا الخطر ، والأوضاع غير عادية فلا تقاوم بطرق سياسية عادية مما جربتها جميع الحكومات التي وقعت فريسة هذه الثورات ، وهي أساليب تقليدية لم يَعِد الله لها بالنصر ، ولم تمنع من حدوث أي انقلاب في أي بلد ، وإنما تنفع في هذا الوقت الرهيب خطوات جريئة حاسمة ، وتغييرات جذرية ، وعهود ومواثيق صادقة مع الله ، فليسمح لي جلالة الملك أن أقول : إن مثلنا كمثل قوم يونس الذين أروا الله الصدق والإخلاص ، والإنابة والإخبات في آخر ساعة ، وغيَّروا ما بهم فغير الله ما بهم .

وهنا بغاية من الاختصار بعض النقط الرئيسية ، التي لا بدَّ من الضغط عليها :

١ ـ الصدق والإخلاص ، والعزم على إخضاع كل ما يجري في هذه البلاد ـ من أمور إدارية حكومية مما يتصل بالإعلام والتربية ، وكل ما يؤثر في الرأي العام ، وفي عقلية الشعب وأخلاقه ، ومستقبل البلاد ـ للمقاصد التي بنيت لها الكعبة ، واختيرت لها هذه الأرض ، لتكون مركزاً للإسلام ، ومصدر إشعاع عالمي ، وللحكمة التي نبَّه عليها القرآن

بقوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] .

٢ ـ إزالة التناقض بين ما يعلنه جلالة الملك ، ويتزعمه بحق ويدعو إليه ، من الدين الخالص ، والإسلام الصريح ، وتحكيم الكتاب والسنة ، والتمسك بالتعاليم الإسلامية ، والقيم الخلقية ، والتضامن الإسلامي الذي أصبح جلالة الملك داعيه الأكبر في هذا العصر ، وبين كل ما ينافيه في مجال الإعلام والتربية ، والمظاهر الاجتماعية ، واتجاهات الشعب من اندفاع متهور إلى الترفيه والتسلية ، والأغاني والملاهي ، والقصص المثيرة والبرامج المستوردة الرقيعة التي أفلت معها الزمام من يد المربين والآباء والأساتذة والعلماء ، والتي لا يحتفظ معها أي شعب بالبقية الباقية من الشعور الديني والحصانة الخلقية ، ولايستعد للطوارىء والمفاجآت ، ولا يتحمل أقل صدمة أو خطر من الخارج .

٣ ـ اتخاذ الحياة الإسلامية ، الحياة التي يرضاها الله ويباركها وينصر عليها ، والحرص على إزالة جميع المنكرات ، وأسباب السخط ودواعي الخذلان ، والفشل في المجال الإداري ، والأخلاق الاجتماعية والفردية ، وتتبعها تتبعاً دقيقاً ، والحد من الثراء الفاحش ، وتكدسه في عدد محدود وطبقة معينة ، وتقييد التجارة ، وحركة الاستيراد الحرة على حساب أخلاق الشعب ، وفي مصلحة عدد محدود جداً وطبقة معيَّنة ، خصوصاً إذا كان ذلك من طبقة الأمراء والأثرياء ، ورجال الحكومة . فإن كل ذلك مما يمهد الأرض ، ويفتح الطريق للشيوعية المتطرفة ، والاشتراكية المقنعة ، والحيلولة بين الحكومة والتجارة بقدر الإمكان ، وإلى أقصى الحدود ، فإن ذلك مما يجحف بالشعب ،

ويجني على الأخلاق ، ويجعل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شبه مستحيل ، وقد نبه نابغة العرب وفيلسوف المؤرخين العلامة ابن خلدون على ضرره وسوء أثره في الحياة .

٤ ـ عدم الثقة بقادة العرب الأنانيين الذين لا يعرفون غير مصلحتهم ، والذين وصفهم القرآن بقوله : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة : ١٠] ووصفهم بقوله : ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨] والذين ينتهزون أول فرصة في بلاد أصدقائهم لقلب الحكومات وإحداث الثورات ، والذين لا شيء أبغض إليهم من وجود الاستقرار والرخاء في بلد ، وقد يكون اليهود أحب إليهم من هؤلاء المسلمين ، والعرب ، والذين ينتهزون أول فرصة لشفاء النفوس من هؤلاء الأبرياء الذين أسعفوهم بالأموال في الساعة العصيبة ، وأنقذوا الوضع ، وينتهزون أول فرصة لتوجيه إذاعاتهم وصحفهم إلى نهش لحومكم ، والولوغ في دمائكم : ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ [النساء : ٧٣] .

بالعكس من ذلك ، الاعتماد على الصادقين المخلصين في داخل البلاد وخارجها ، الذين تربطهم بكم رابطة العقيدة والعاطفة ، والذين يدينون بالولاء والوفاء ، ويؤمنون بمبدأ الحب في الله ، والبغض في الله تقرباً إلى الله ، وإعزازاً لدين الله من غير مقابل مادي أو طمع دنيوي ، أو مصلحة فردية أو سياسية ، فأولئك هم الكنانة والجُنَّة في الخطوب ، وموضع الثقة والأمانة ، وعيبة النصح في السَّراء والضرَّاء ، ولا يكون هذا الإخلاص إلا عن إيمان عميق ودين متين ، ورابطة روحية ، ونزاهة لا ترتقي إليها شبهة ، ووجود أمثال هؤلاء في الحكومة ، والجهاز

الإداري ، والاعتماد عليهم في السياسة الخارجية والداخلية ، أكبر حارس للحكومة والبلاد ، بخلاف الانتهازيين والعلمانيين ، الذين لا يدينون بدين ولا يزعهم وازع من خلق أو مبدأ ، ولا يرون لهذه البلاد قدساً أو شرفاً ، إنما ينساقون مع الرغبات والمصالح ، وينفذون أوامر قادتهم في الخارج .

هذا ما أملاه الإخلاص والحب لهذه البلاد ، ولمن اختاره الله لحراستها وخدمتها ، والحرص على سلامة هذه البلاد من الأخطار التي قد وصلت إلى أسوارها ، وبدأت تدق أبوابها ، وفي اطلاع جلالة الملك الواسع وألمعيته النادرة ما يغني عن التطويل والتفصيل ، والشرح والتعليل ، والله المستعان .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الداعي المخلص

أبو الحسن علي الحسني الندوي

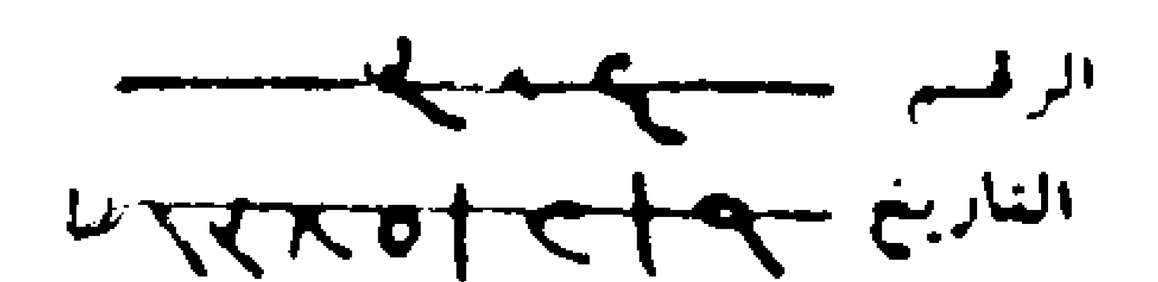
* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

الرقم

التاريخ

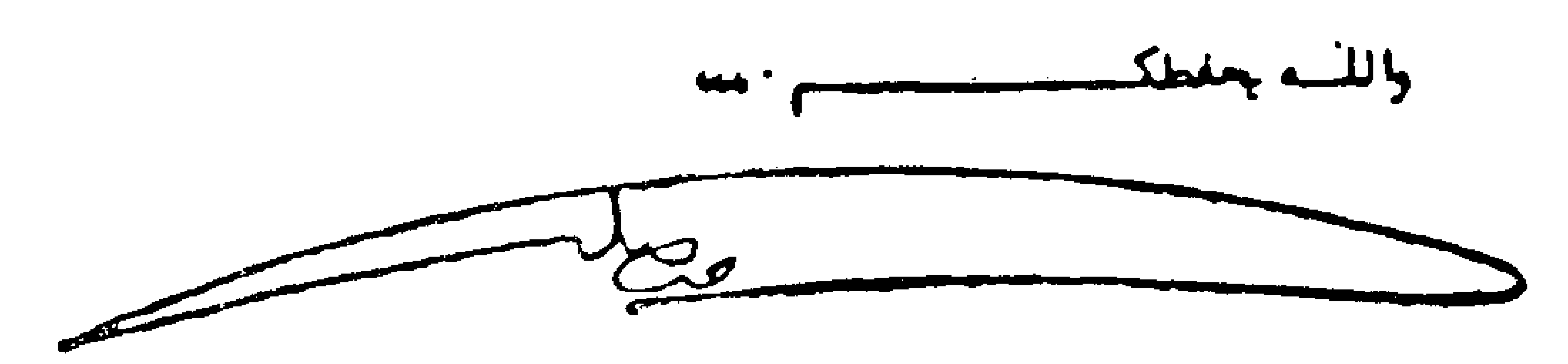


فضيلة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . نرجو من الله لكم دوام الصحة وموفور السعادة . وبعد :-

فقد تلقينا رسالتكم المؤرخة في ١٥/ ١٢/ ١٣٨٤هـ . وأحطنا علماً بما بذ يتضمنه . ومع شكرنا لمشاعركم الطيبة وتقديرنا لروحكم الإسلامية وغيرتكم الدينية . فإننا نود أن نؤكد لكم أننا لم نسمح ولا يمكن أبداً أن نسمح بما يتعارض مع ديننا الحنيف وتعاليمه القويمة سائلين المولى سبحانه أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير هذا الدين وإعلاء شأنه وجمع كلمة المسلمين على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم

والله يحفظكم .



صورة فوتوغرافية

لكتاب المرحوم جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز إلى المؤلف

الخط الأخير في جبهة الوجود الإسلامي
ووجوب حراسته ودرء الأخطار عنه

كتاب إلى صاحب السمو الملكي فهد بن عبد العزيز المعظم آل سعود ولي العهد والنائب الأول لمجلس الوزراء

[قطعت المملكة العربية السعودية أشواطاً بعيدة في المدنية والرفاهية وارتفاع مستوى المعيشة ، بحكم ما أنعم الله به عليها من خروج النفط ، وتدفُّق الثروات ، وما تتمتع به من مكانة عالية في الاقتصاد العالمي ، وأصبحت بفضل الله تعالى أغنى بلاد المسلمين ومن أغنى بلاد العالم اليوم ، وتبع ذلك ما يتبعه دائماً من ظواهر طبعية نفسية لا يخلو عنها مجتمع إنساني أو حضارة يضعف فيها الوازع الديني ، ويحيط بها بحر المدنية والمادية الهائج المائج من كل جانب ، وتجوس أمواجه خلاله ، من أدواء خلقية ، كشره المال والتقدير الزائد له ولأصحابه ، والوصول إليه من كل طريق ، والشغف الزائد بطرق التسلية والمتعة ، وحدوث النعمة والرقة ، والبطر ونكران الجميل ، والقسوة والأنانية ، فأفزع ذلك كاتب هذه السطور الذي يزور المملكة ويزور البلاد المقدسة بمناسبات كثيرة مرة وأكثر من مرة في السنة ، عضواً في مجلس أو مندوباً في مؤتمر ، ويشهد الموسم ، ويؤدي مناسك الحج ، ويخالط جميع الطبقات ، ويجرِّب أخلاق كل طبقة من

طبقات الأمة والبلاد ، ويطَّلع على ما يتجدَّد من اتجاهات وتيارات ، وميول ونزعات ، فيطَّلع على ما لا يطَّلع عليه من يزور هذه البلاد حاجاً أو معتمراً أو ضيفاً للمملكة أو عابر سبيل .

فأفزعته هذه الظاهرة في هذه البلاد التي تقوم على آخر خط في المعركة الطويلة التي يخوضها العالم الإسلامي ، وكان جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز قد استأثرت به رحمة الله ، وخلفه أخوه جلالة الملك خالد بن عبد العزيز حفظه الله ، وولي عهده الأمير فهد بن عبد العزيز المعظم النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء ، فأراد أن يبث شجونه وأحزانه إلى من يملك زمام الأمور ، ويؤثر في سياسة البلاد وسير الأمور فيها ومن ينظر إليه الناس كقائد وقدوة ، فكتب هذه الرسالة في حالة نفسية خاصة ، وتأثر عميق ، وقد مكث في المملكة عدة شهور ، وحضر دورة المجلس الأعلى العالمي للمساجد ودورة المجلس الأعلى للجامعة ، وزار الرياض ، وقابل جلالة الملك ، وكتب هذه الرسالة إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز المعظم في ٢٢/ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٦هـ (٢٢/ من أبريل ١٩٧٦م) أو ما يقاربه ، ووصلت إلى سموه بطريقة مأمونة ويد أمينة ، واطلع عليها ، وهنا نص هذه الرسالة] :

حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز ولي العهد والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء

حفظه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ! فقد كنت حريصاً عل لقاء سموكم والحديث معكم في جلسة خاصة هادئة ، مع معرفتي

للمسؤوليات الضخمة التي تضطلعون بها ، وإنما جرَّأني على ذلك ما كان عوَّدني عليه أخوكم العظيم جلالة الملك فيصل الشهيد من سماحه لي للحديث الخاص كلَّما طلبته ، وحسن استماعه والصبر ، وما كان أولاني به من ثقة ، وآثرت أن أقيد ما أحب أن أضعه بين يدي سموكم مما يمليه عليَّ الإخلاص للإسلام والمسلمين ، ولهذه البلاد العزيزة المقدسة ، فأعتمد على هذه الرسالة الخاصة رجاء أن تحظى منكم بلفتة كريمة ، وإن كانت الرسالة لا تنوب عن حديث القلب مع القلب ، وبثِّ الشجون عن طريق العيون ، ولعل الله يمنُّ عليَّ بلقاء آخر .

وأرجو أن تسمحوا لي بصراحة التزمتها في أحاديثي ورسائلي الخاصة لجلالة الملك الراحل رحمة الله عليه ، والتي يقتضيها الإخلاص لهذه البلاد المقدسة ، والأسرة الملكية الكريمة التي اختارها الله أخيراً لخدمة الحرمين الشريفين ، وخدمة الإسلام ، والتي يقتضيها الواقع الدقيق الذي تعيشه هذه البلاد والأمة الإسلامية .

إنني أعتقد يا صاحب السمو الملكي ! أن هذه البلاد تمرُّ الآن بأدق مرحلة مرت بها في تاريخها الطويل ، ويزيد الأمر خطورة ودقة وجود مركز الإسلام في هذه الرقعة ، وارتباط مصير الإسلام والمسلمين ومستقبلهم به ، وهو الخط الأخير في جبهة الوجود الإسلامي ، إذا تخطاه العدو ، أو إذا انسحبنا عنه ، فلا أمل في بقاء الإسلام وعزِّ المسلمين .

إنني أشعر بأن هذه البلاد بين خطرين عظيمين ، أو بين فكَّي الأسد ، أما الخطر الخارجي فلا أطيل الحديث عنه فإنه واضح ،

فالشيوعية زاحفة من عدة جهات ، وأعداؤنا بالمرصاد ، يريدون أن ينتهزوا أول فرصة ، والدوافع معلومة لا تحتاج إلى إيضاح ، منها علمهم بحساسية هذا المركز ، وأنه أقصر طريق وأضمنه للاستحواذ على ثروة هي وريد الصناعة والمدنية ، والقوَّة الحربية اليوم وهي النفط ، وقد أصبحوا تتحلب أفواههم على ما أكرمكم الله به من رخاء وثراء ، ومنابع الثروة والطاقة ـ أعاذكم الله من شرِّهم ـ وأنتم ـ والحمد لله ـ أبصر بالأخطار المحدقة بكم ، وقد أصبحت من الوضوح بمكان لا تحتاج معه إلى تفصيل أو تجسيم ، وفي وجود إسرائيل على طرف الشام ، واتجاه الدول المحيطة بالجزيرة ، ثم في حوادث لبنان الأخيرة ، ما يغني عن التوسع في هذا الموضوع .

أما الخطر الداخلي فهو عندي أعظم من الخطر الخارجي ، فبكلٍّ صراحة يا سمو الأمير ! : إن البلاد اليوم سائرة في طريق الانتحار تجتاح الشعب اليوم موجتان عارمتان ، إحداهما موجة النهامة بالمال واستثماره والزيادة فيه ، والوصول إليه من كل طريق شرعي وغير شرعي ، نسيت معها جميع القيم الدينية والخلقية واحترام الإنسانية ، ومصالح المقيمين والوافدين من أنحاء العالم الإسلامي ، نستطيع أن نعبر عن هذه الظاهرة بهستيريا المادية والتكاثر ، نشأت عنها مشكلات طريفة معقَّدة أصبحت منها البلاد في خطر .

والموجة الثانية هي الشغف الزائد بطرق التسلية والمتعة ، فالبلاد تسبح اليوم في فيض من الأغاني وأنواع اللهو والتمتع ، والتهرُّب من كل ما يشقُّ على النفس ويطلب الصبر وعلوَّ الهمة ، وبذلك يتجرَّد الشعب العربي المسلم الذي عرف في التاريخ بالتقشف والبساطة

والفروسية التي استطاع بها أن يضطلع بأمانة الإسلام ويتغلَّب به على الشعوب التي أنهكتها أدواء المدنية والترف عن كل أوصاف الرجولة والفتوة ، وإذا استمرت هذه الحال مدة فإنه سينشأ جيل مائع رقيق متخنث لا يستطيع أن يقاوم أيَّ تحدٍّ من الخارج أو الداخل ، ويحفظ سلامة البلاد فضلاً عن أن يبلغ رسالة الإسلام ، ويكون قدوة صالحة وأستاذاً موجهاً لمن يفد إلى هذه البلاد للحج من جميع أنحاء العالم الإسلامي .

وقد علَّمنا تاريخ الأمم والبلاد ، والمدنيات والتاريخ الإسلامي ـ كما قلت في كتاب خاص كتبته إلى جلالة الملك فيصل رحمة الله عليه ـ أن هذه الطبقة هي التي شكلت الخطر دائماً على الحكومات ، وهي التي قادت الثورات والانقلابات لما أصابها من البطر ونكران الجميل ، والحب الزائد للمال ، والحصول على وسائله وطرقه ، والجراءة على الله ، وتجرُّد القلوب عن خشيته ، والإخلاد إلى الراحة ونعيم الدنيا ، والحرمان من الخلق الكريم ، وهي تجربة تكرَّرت في التاريخ بحيث لم تدع مجالًا للثقة بهذه الطبقة ، والزيادة في أسباب ترفيهها وإرضاء رغبتها في التسلية والمتعة الرخيصة وهي الغلطة التي ارتكبتها حكومة بني أمية وحكومة بني العباس ، نرى آثارها ومظاهرها في روايات « الأغاني » و « كتاب الحيوان » و « ألف ليلة وليلة » .

إن الطبقة الوحيدة ، يا صاحب السمو ! التي ينبغي أن نعتمد عليها في الإخلاص ، ومعرفة الجميل ، وحراسة البلاد والمقدسات الإسلامية ، وحماية الكرامة والأعراض ومقاومة العدوِّ ، هي الطبقة التي ربيت تربية دينية خلْقية ، ونشأت على العقيدة الصحيحة والخلق

السليم والاستقامة والتماسك ، وشيء من القناعة والتقشف ، وإيثار الآجلة على العاجلة ، والحمية الدينية ، والغيرة الإسلامية ، وإن ذلك يحتاج إلى نظرة جديدة في سياسة التربية والإعلام وتوجيهها إلى تحقيق هذا الغرض وإنشاء جيل مؤمن ، متخلِّق بالأخلاق الإسلامية ، وخصائص الأمة العربية الأولى التي ساعدت في نشر الإسلام والجهاد في سبيله ، وإنشاء الإمبراطورية الإسلامية التي كان أولها في الغرب وآخرها في الشرق ، والذي يعرف رسالته ويؤثرها على كل رسالة ويغار عليها ، ويستميت في سبيلها ، وذلك يتوقف على خطوة جريئة حاسمة مؤسَّسة على الاجتهاد والاستقلال الفكري ، والابتعاد عن شوائب التقليد ، والتخطيط الذي لا يتفق مع شخصية هذه البلاد ورسالتها .

إن أخوف ما نخاف على هذه البلاد وعلى العالم الإسلامي ، هو أن تتجرَّد هذه البلاد المقدسة والشعب العربي السعودي الكريم وخاصة جيران البيت الحرام والمسجد النبوي عن شخصيتهم المثالية ومركزهم القيادي ، بل عن شخصيتهم الإسلامية ، والتنكُّر لها والاستنكاف عنها ، وأن تنشأ بينهم وبين الحرم وما قام له ويقوم ، فجوة واسعة عميقة لا تردم ، ولا يقوم عليها جسر ، فيعيش كل واحد منهما في عزلة عن صاحبه ، وقد تكون صلة المسلمين في بلاد العجم والآفاقيين أقوى وأعمق ، من صلة الذين يعيشون في رحاب الحرم وظلال الكعبة ، وهو خطر قد ظهرت طلائعه بتأثير طرق التربية والإعلام ، وتدفق الثروة ، وتوفُّر وسائل الترفيه والتسلية توفراً لا يوجد نظيره في بلد إسلامي آخر ، وفقدان القدوة الصالحة والنماذج العلمية في القناعة والتماسك وسموِّ النظر ، وبسبب ضعف الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتأثير المدنية الغربية وقيمها ومثلها من غير نقد وتمحيص ، وبتأثير

الصحف والمجلات الرقيعة ، والروايات المثيرة للغرائز ، التي تنصب على هذه المملكة من زمن طويل ، رغم جهود الغيارى من المسؤولين ، ورغم كراهتكم لها وتوجيهاتكم السامية إلى مراقبتها ، وقد قضى الله أن تكون هذه الجزيرة حرماً للإسلام وحمى له ، وأوصى بذلك رسول الله ﷺ فيما أوصى به في آخر عهده بالدنيا ، فقال : « لا يجتمع بجزيرة العرب دينان » ، وقال : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » ، وعدم اجتماع دينين وإخراج اليهود والنصارى من هذه الجزيرة الذي أمر به الرسول ﷺ ، يحمل أبعاداً ومعاني أوسع مما يبدو ظاهراً من اللفظ ، فهو يشمل إبعاد أثرهم ، وتغلغل حضارتهم وقيمهم في هذه الجزيرة ، وخطر نشوء جيل ليس بينه وبين الحرم ومسجد الرسول ورسالتهما تجاوب وانسجام ، وتفاهم ، واتفاق ، بل بينهما بالعكس تباعد وتجاف ، خطر لا يوجد له نظير في التاريخ الماضي ، ووجوده - لاسمح الله بذلك - خطر على سلامة البلاد وكرامتها ، يحرك الغيرة الإلهية كما وقع ذلك مراراً في التاريخ ، ونعيذ هذه المملكة وعلى رأسها الأسرة السعودية الكريمة التي كان قيامها على الدعوة إلى التوحيد والدين الخالص ، والعودة إلى عصر الإسلام الأول ، وتحكيم الكتاب والسنة ، من أن يقع هذا الخطر بين سمعها وبصرها ، وفي وجود عاهل الجزيرة الكريم وإخوته الغر الميامين ، وفي مقدمتهم صاحب السمو الملكي الكريم الأمير فهد بن عبد العزيز أمل كبير في دفع هذا الخطر ، ووقاية البلاد منه .

ولا ينقذ هذه البلاد المقدسة ، وهذه المملكة العزيزة التي هي مناط آمال المسلمين ، وموضع ثقتهم من هذا الخطر الداهم ، إلا الرجل القوي الأمين الذي ينهض لدرء هذا الخطر ، ويضحي في سبيله بلذته

وراحته ، وكل ما يحبب إلى النفس من تمتع ورخاء ، ولا لذة فوق لذة الإيمان والكفاح ، لإنقاذ البلاد والعباد ، وحماية الإسلام والمسلمين ، وتأمين مستقبلهم ، وإرضاء الله والانخراط في سلك المجاهدين والمجدِّدين الذين قيضهم الله لكل عصر ولكل فترة حالكة ومحنة قاسية ، ولكم في سيدنا عمر بن عبد العزيز أولًا ، وفي السلطان صلاح الدين الأيوبي آخراً أسوة حسنة ، فقد قام كل واحد منهما في عصره حين اشتدت بالإسلام المحنة ـ وبلغت التراقي وقيل من راق ـ بدوره القيادي الذي كان خطاً فاصلاً بين عهدين ، وغيَّر مجرى التاريخ وأرغم المجتمع المعاصر على أن ينحو نحواً جديداً ، وكان خطوة مباركة أثنت عليها الملائكة والروح ، وخلد الله ذكرها ، واعترفت الأجيال القادمة بفضلها .

وهذه البلاد ، والمسلمون الذين ارتبط مصيرهم بها في مشارق الأرض ومغاربها ، ويتطلَّعون بصبر نافد وقلب مضطرب إلى طلوع نجم جديد من أفق هذه الجزيرة ، فلم يغب لها نجم إلَّا وطلع لها نجم آخر ، وقد أغاث الله هذه المملكة وهذا البيت الكريم بفيصل العظيم ، والناس والبلاد في أشد حاجة إلى قائد يرفع راية التضامن الإسلامي ، ويرد إلى هذه البلاد والمملكة اعتبارها ، ويرغم الخصوم لاحترامها والحساب لها ، ويعنى بالقضايا الإسلامية عناية الأب الحنون ، حين طمع الأعداء في هذه الجزيرة وهذه المملكة ، وحين شنُّوا الغارة الشعواء عليها وتداعت أركانها وقواعدها ، وليست هذه الفترة التي تمر بها هذه البلاد وهذه المملكة أقل دقة وأعظم خطراً من الفترة التي نهض فيها فيصل العظيم ، بل قد تكون أكثر دقة وأعظم خطراً منها ، وأملنا في الله أن يقيِّض لهذه المملكة قائداً لا يحفظ هذه البلاد من الأخطار

المحدقة بها فحسب ، بل ويحفظها من الفتن الداخلية أيضاً ، ويعنى بردم هذه الفجوة التي تحدثنا بها وإبعادها ، ويعنى بإخضاع جميع الوسائل التي أكرم الله بها هذه المملكة لتربية أبناء هذه البلاد بناءً على أن هذه الجزيرة ـ في وجودها وكيانها اليوم ـ مدينة للإسلام والنبوة المحمَّدية ودعوتها وجهادها وتربيتها ، وأبناؤها أمانة مقدَّسة عزيزة عند من يشرفهم الله بالوصاية عليها والقيام بشؤونها ، يربيهم كما يرضاها الإسلام ويريدها لأبناء مركز الإسلام ، وكما كان يربيها الرسول وأصحابه إن كانوا أحياءً ، ويحرص كل الحرص على أن يكون هذا البلد البلد المثالي لمن يفد إليه حاجاً ومعتمراً ، وزائراً ، يستمد منه الإيمان والحنان ويشحن بطارية قلبه وعقله بشحنة إيمانية ، ويكون كل تخطيط مطابقاً لرسالته وشخصيته محققاً لهذا الغرض .

وقد أطلت عليكم يا صاحب السمو الملكي في هذه الرسالة فإن الحديث ذو شجون ، وأستميح من سموكم العفو وأسأل الله العليَّ القدير أن يحفظكم ويقوِّيكم ، ويطيل حياتكم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ، ولائق التحية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

أبو الحسن علي الحسني الندوي

* * *

يجب أن ينسجم التخطيط مع المقاصد التي قام عليها المسجد الحرام ، ويهيَّأ الشعب ليمثل دوره القياديّ

(من كتاب إلى معالي الشيخ محمد سرور الصبان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي سابقاً)

[لم يزل كاتب هذه السطور يعود إلى موضوع سياسة التخطيط الشامل وسياسة الإعلام في البلاد المقدَّسة ، ويبدي فيه آراءه وتجاربه ، ومشاعره وأحاسيسه ، ويبحثه مع عاهل البلاد والمسؤولين عنها في المملكة ، ويصغون إليه بأذن صاغية وقلب متفتح ، ويولون الموضوع اهتمامهم وعنايتهم .

وهنا رسالة كتبها الكاتب إلى صديقه الكبير المرحوم معالي الشيخ محمد سرور الصبان أمين رابطة العالم الإسلامي العام ، ويرجع تاريخ معرفة الكاتب به إلى سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) حين كان الشيخ محمد سرور نائب وزير المالية ، ثم توثقت بينهما الصداقة والثقة في سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١م حين قضى الكاتب في الحجاز نحو سنة ، وكان الشيخ محمد سرور نائب وزير المالية ومشرفاً على الإذاعة ، ثم كان وزير المالية في المملكة ولما تأسست الرابطة في ذي الحجة ١٣٨١هـ (١٩٦٢م) اختير الشيخ محمد سرور الأمين العام الأول ، واختير كاتب هذه الرسالة عضواً في المجلس التأسيسي ، من هنا سنحت له فرص

الاجتماع بمعاليه والحديث إليه كل سنة في دورة الرابطة ، وفي المجالس الخاصة ، ووثق كل واحد بصاحبه وأحبه ، وقد كتب المؤلف هذه الرسالة في رجب ١٣٩٠هـ سبتمبر ١٩٧٠م وقد تأخر عن حضور الدورة لأسباب قاسرة ، فاستناب هذه الرسالة إلى معالي الشيخ محمد سرور وهو يريد أن يطلع عليها جلالة الملك فيصل وترجاه أن يطلع جلالته عليها ، وأكبر الظن أنه فعل ذلك] :

. . . لا شك أن جلالة الملك المعظم أتاح لنا فرصاً عديدة ومتكرِّرة للحديث وإبداء الملاحظات ، وأنا شخصياً أعترف بفضل كبير فإنه أصغى إلى حديثي دائماً ، وتكرم بقراءة ما عرضته عليه من ملاحظات وآراء ، وقد تحدثنا مع جلالته عن سياسة التربية وعن سياسة الإعلام التي تصوغ مستقبل الأجيال صياغة خاصة لا تتفق مع رسالة هذا الشعب الذي يطلب منه أن يمثِّل دوره القيادي ، والذي يعتبر نموذجاً للمسلم في كل بلد ، وليست القضية قضية فساد في الإدارة أو انحراف في المجتمع ، أو قضية انتشار لشيء حرمه الله ، وإن كانت لذلك أهميته ونكارته ، إنما هي قضية تخطيط شامل يستخدم جميع وسائل التربية والإعلام والنشر والإذاعة ، والصحافة ، والاقتصاد والتجارة ، سيصوغ المجتمع السعودي العربي الإسلامي صياغة جديدة ، أقول بصراحة : إنها لا تنسجم مع مبادىء الإسلام وقيمه ، ولا تنسجم مع المقاصد التي قام عليها المسجد الحرام وهَفَت لها قلوب المسلمين في كل عصر ، بل ستنشىء الجيل الجديد الذي سيتنكر لهذا الحرم ورسالته ، وستحدث بينه وبين البلد الحرام ودعوة إبراهيم ومحمد عليهما السلام فجوة عقلية ، واسعة عميقة ، لا تملؤها القومية العربية ، ولا المصالح السياسية ، ولا تقوم عليها قنطرة ، وإن بذل فيها المهندسون الأوربيون أكبر ذكائهم وعبقريتهم ، وإنه كفيل بأن يقصر الفجوة بقدر

الإمكان بين الشعب العربي المسلم الذي اختاره الله للقيادة ، وبوَّأه مبوأ صدق وبين الشعوب الغربية ، التي تزعَّمت الإلحاد والإفساد في الأرض والثورة على القيم الخلقية والمفاهيم الغيبية ، فلا خلاف ولا جدال ، ولا إسلام ولا مسيحية ، ولا خير ولا شر ، ولا رذيلة ولا فضيلة ، ولا بر ولا إثم ، ولا تقوى ولا فجور ، ولا معروف ولا منكر .

وليس ذلك خطراً على الشعب السعودي الإسلامي الذي يسكن في هذه المنطقة ، أنه سيفقد شخصيته ورسالته ومقومات حياته ، بل إنه خطر على الإسلام والمسلمين ، فقد اختار الله هذا البلد ليكون مثابة للناس ، واختار هذا البيت ليكون قياماً للناس ، والمسلمون في أنحاء الأرض يحتجون بعمل هذا البلد ويستشهدون به وليس بعد عمل الحرمين عمل ، وهكذا ينقع لسان كل خطيب وينكسر قلم كل مصلح .

وندعو الله لكم دائماً بالتوفيق والهداية لما فيه خير للإسلام والمسلمين ، ونحن إذ نكتب هذه السطور نقدِّر جهودكم ومواهبكم العظيمة ، ونعترف لجلالة الملك فيصل المعظم بالعناية الفائقة بهذه المؤسسة ، وتقدير بالغ لأعضائها ، ومدَّ الله حياته ونفع به الإسلام والمسلمين ، وأعاد به هذه الجزيرة إلى مركزها في مصاف الشعوب والأمم ، والله ولي التوفيق والتأييد .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

أبو الحسن علي الحسني الندوي

أمين ندوة العلماء العام ـ لكهنؤ (الهند)

المعارف هي التي تصوغ البلاد صياغة جديدة
وتعطي المجتمع شكله النهائي
فلتكن موضع الاهتمام قبل كل مؤسسة

(كتاب إلى معالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير المعارف في المملكة العربية السعودية)

[كانت سياسة التربية والتعليم ونظام المعارف في البلاد الإسلامية مجالًا وجَّه إليه الكاتب دراساته وتأمُّلاته ، وقد بدأ حياته كمعلم ، ثم كمشرف على التعليم في مركز تعليمي إسلامي كبير كندوة العلماء ، ثم كمدير وأمين عام لها ، ودرس موضوع التعليم في اللغات الإسلامية وفي بعض اللغات الأجنبية ، وألقى محاضرات في عدد من الجامعات المدنية الكبيرة في شبه القارة الهندية وخارجها ، وزار جامعات أوربة وأمريكا الكبرى ، وعمل عضواً في المجالس الاستشارية واللجان التعليمية التابعة لعدد من الجامعات الإسلامية ، وحضر المؤتمرات التعليمية ، وحاضر فيها ، وبحث الموضوع .

كل ذلك انتهى به إلى الإيمان بأن التربية هي التي تقرِّر مصير الأقطار الإسلامية ومستقبل الأجيال المسلمة ، وأنها هي النقطة التي تنحصر فيها المعركة الفكرية الحضارية الحاسمة التي يخوضها العالم الإسلامي اليوم ، وكان نظام التربية والتعليم في المملكة العربية

السعودية موضع اهتمامه وموضع تفكيره أكثر من كل بلد ، لأنها هي القائدة للعالم الإسلامي والبلد الذي يتخذ مثالاً وقدوة ، ولأنها معقل الإسلام ومأرزه ، فكان بحكم هذا الإيمان العميق والحب الخالص لهذه البلاد يثير اهتمام قادة هذه البلاد، والموجهين لسياسة التربية والمشرفين عليها بين آونة وأخرى ، ويراسلهم ويتصل بهم .

وكان في مقدمتهم وعلى رأسهم الوزير العالم الغيور صاحب المعالي الشيخ حسن بن عبد الله بن الحسن آل الشيخ وزير المعارف سابقاً ، ووزير التعليم العالي حالياً في المملكة ، وقد توثقت بين معاليه وكاتب هذه السطور الصداقة ، وكان معاليه يولي كلما يكتب إليه هذا الكاتب اهتمامه ، فشجّعه ذلك على مواصلة السير في هذا الاتجاه وكتب إليه عدة رسائل ، ومن ضمنها هذه الرسالة التي جاءت فيها خواطره وتجاربه أوضح وأقوى .

وإلى القراء هذه الرسالة التي كتبها من الهند في سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م)] :

حضرة صاحب المعالي الشيخ حسن بن عبد الله بن الحسن وزير المعارف ! قوّاه الله وأيّده بروح منه ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فأرجو أن تكونوا قد عدتم إلى مقركم عودة سالمة غانمة[1] ، وأهنّئكم على سلامة الوصول ، وأحييكم تحية مباركة .

إن اهتمامي بشؤون هذه البلاد ، وقلقي للاتجاهات التي ستقرر مصيرها دينياً وفكرياً ، ومبدئياً لا يستغرب ، ولا يحتاج إلى شرح

---

(١) كان معاليه في رحلة إلى أوربة عاد منها قريباً .

الأسباب ، فإنها قلب العالم الإسلامي النابض وأن جميع الأقطار الإسلامية خاضعة لما تتمخض به هذه البلاد ، والاتجاهات التي تغزوها ، وسلامة هذه البلاد من كل اصطراع فكري ، وقلق نفسي ، ومن ضعف الثقة بخلود رسالة الإسلام وجدارتها للقيادة ، ومن التحلل في الأخلاق ، من أهم الغايات ، وذلك يجعل كل من يهتم بقضية هذه البلاد ، يركز فكره على المعارف لأنها هي التي تصوغ البلاد صياغة جديدة ، وهي التي ستعطي المجتمع شكله النهائي ، وقد أثر عن بعض الصالحين المهتمين بأمور المسلمين ، أنه قال : « لو كانت لي دعوة مستجابة واحدة ، لخصصت بها صاحب الأمر والنهي في البلاد ، لأن صلاح المسلمين يتوقف على صلاحه » وأقول لو كانت لي دعوة مستجابة واحدة لصرفتها إلى وزارة المعارف ، ولدعوت الله لها بالتوفيق والسداد والاستقامة ، والقوة والأيد ، ولو كان لي نفس واحد من الحياة والنشاط ، لبذلته في إعانة هذه الوزارة والإسهام معها ، ولو اجتمعت ألف قوى ومؤسسات ، وعبقريات على إفساد بلد ، وقد صلحت معارفه وعرفت واجبها ، ورزقت العاملين المخلصين الأذكياء، لما نجحت هذه القوى المفسدة في تحقيق غايتها ، وإذا اجتمعت ألف قوى ومؤسسات ، وعبقريات على إصلاح بلد ، وقد فسدت معارفه وضعفت ، لم تثمر جهودها .

إن العالم الإسلامي اليوم يواجه معركة واحدة ، وهي الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية بأوسع معاني كلتا الفكرتين ، والمملكة كذلك تخضع في قليل أو كثير لتأثير هذا الصراع العالمي ، ويزيد الأمر خطورة ودقة ، أنها في مرحلة انتقال ، انتقال من الأمية التي كانت تطغى على هذا الشعب الكريم الذكي النجيب ، (بحكم إهمال

الحكومات السابقة وتفريطها في تثقيف البلاد) إلى التعلُّم الشامل ، والثقافة الواسعة ، التي ينفق عليها بسخاء نادر ، وأريحيَّة منقطعة النظير ، وانتقال من حياة بسيطة محدودة . (أشبه بحياة القرون الوسطى) إلى حياة متطوِّرة تطوراً سريعاً لا يعلم أحد مداه ، ومن هدوء يتصل بالركود والجمود ، إلى بحث وتطلّع ، وهذه المرحلة هي أدق المراحل في حياة الأمم وتاريخ البلاد ، وهي التي تحتاج إلى تصميم حكيم دقيق ، ونقد واسع عميق ، وإلى متعاونين مؤمنين مخلصين ، وموجِّهين ناضجين محنكين ، وإن أصغر زلة أو قصر نظر ، أو تهوُّر في وضع المناهج أو اقتباس العلوم ، أو اختيار المعلمين ، أو جلب الأساتذة من الخارج ، الذين لا يؤمنون بالفكرة التي تسيطر على هذه الوزارة ، ولا يخلصون لها ، تهوي بهذه البلاد إلى هاوية لا قرار لها ، وإلى غاية لا رجعة منها .

لقد كان وجود معاليكم في مركز توجيه المعارف وعلى رأسها ، ضماناً لسلامة هذه البلاد من الأخطار التي تهددها ، فأنتم فرع دوحة الإصلاح والتجديد في الجزيرة ، وكل ابن كريم غيور على تراث جده وجهوده وكل بلد تنجح فيه المخططات التعليمية المادية أو العلمانية لا يستطيع أن يحتفظ برسالته الروحية العالمية وبمقدساته وشعاراته ، فلنا أمل كبير في شخصكم الكريم ، وفي غيرتكم على هذا الدين ، وعلى الجهود الإصلاحية التي قام بها أئمة المسلمين ودعاتهم ، وفي غيرتكم على شخصية هذه البلاد ، التي منحها مركزها من العالم الإسلامي ومن التاريخ الإسلامي ، وتجريدها من هذه الشخصية إفقادها قيمتها وأكبر مقوِّماتها ، وأكبر إساءة إليها ، وإني مع بعدي عن البلاد المقدسة ، واضطلاعي بأعباء كثيرة ثقيلة ، أؤكد لكم استعدادي للتعاون

معكم في العمل العظيم الذي أخذتموه على عاتقكم ، وأكرمكم الله بالنهوض به ، وأدعو لكم دائماً بالنصر والتأييد ، وأن يشدَّ أزركم ، ويبارك في حياتكم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الداعي المخلص

أبو الحسن علي الحسني الندوي

٥/ ٢/ ١٣٨٥هـ

٦/ ٦/ ١٩٦٥م

* * *

ليكن أساس نظام التربية في المملكة
أن الجزيرة العربية هي غرس محمد عليه الصلاة والسلام وثمرة دعوته وجهاده

(من محاضرة ألقاها المؤلف في جامعة الرياض)

[هنا قطعة مقتبسة من محاضرة ألقاها المؤلف في قاعة جامعة الرياض ، في ٢٢/ شعبان ١٣٨٨هـ (١٣/نوفمبر ١٩٦٨م) وقد زار العاصمة ، وزار معاهدها وكلياتها بدعوة من معالي وزير المعارف ، الشيخ حسن بن عبد الله بن الحسن آل الشيخ ، وقد حضر هذه المحاضرة معالي وزير المعارف ، وعدد كبير من أصحاب الاختصاص في التربية والتعليم ، وأساتذة الكليات ، ورجال المعارف والمثقفون الكبار في العاصمة ، ونشر نص المحاضرة بكامله في كتاب « نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية » وقد صدرت له عدة طبعات .

وقد جاءت في هذه المحاضرة حقائق علمية ، ووثائق تاريخية ، وشهادات كبار أئمة التربية لأول مرة في مقال أو محاضرة في موضوع التعليم الإسلامي في اللغة العربية ، ونحيل القارىء الكريم إلى مراجعة كتاب : « نحو التربية الإسلامية الحرة » لاستيعاب هذا المقال] :

إن الجزيرة ذات شخصية فرضتها عليها الحكمة الإلهية قبل مئات

من السنين ، واقترنت بها اقتران الطبيعة والمزاج بفرد أو جماعة ، ورافقتها في رحلتها التاريخية الطويلة الشاقة ، المستقيمة الهادئة أحياناً ، والمنعطفة الملتوية أحياناً ، من غير أن تفارقها أو أن تتخلف عنها ، ولو فترة قصيرة من الزمان ، وقد ساعدتها على ذلك جميع العوامل التاريخية والطبيعية ، والخلقية والاجتماعية ، وألحت على أن تحتفظ بها وتستقيم عليها ، وذات رسالة اختارها الله لها واختار الجزيرة لها وارتبطت مصلحة كل واحد منهما بالأخرى وأصبحت محاولة تجريد كل واحدة منهما عن الأخرى ، محاولة أثيمة إجرامية ، فضلاً عن أنها محاولة غير طبيعية ومخفقة دائماً .

وقد منحت هاتان الحقيقتان التاريخيتان الطبيعيتان هذه الجزيرة مركزاً رئيسياً في كل فترة من فترات التاريخ ، ووضعتها في محل القيادة والتوجيه ، والإشراف والحسبة ، ورفعتها عن مستوى التقليد والاتباع ، والتمثيل والمحاكاة والتلمذة والتطفُّل ، ومجرد التنفيذ والتطبيق ، والاقتباس والتلقين ، وفرضت عليها بطبيعة الحال الأصالة والاستقلال ، سواء في الأساليب المدنية أو المناهج التعليمية ، فليست قضية هذه البلاد التعليمية من البساطة والسهولة بالمكان الذي يتصوره كثير من رجال التربية والتعليم ، ولا يقاس النجاح فيها ، والتغلب على مشكلاتها ، بانتشار مجرد القراءة والكتابة في الجمهور ، وكثرة وجود مدارس البنين والبنات ، وقيام عدد ضخم من الثانويات والكليات ، ونشوء بعض الجامعات ، وكثرة عدد المتخرجين فيها ، والقاصدين إلى عواصم الأرض للتوسع في الدراسات العليا ، والعائدين منهم بنجاح باهر ، والشاغلين منهم للمراكز الإدارية والتعليمية الرئيسية ، فذلك مقياس يمكن أن يكون لبلد معمور من بلاد إفريقية التي دخلت في حلبة

المدنية العصرية حديثاً ، وقد أبى اليابان البوذي ، وأبت الهند البرهمية أن تتخذاه المقياس الحقيقي أو الهدف الأسمى من نشر العلم والثقافة ، ومحاربة الأمية والجهالة ، وألحتا على أن يكون هذا التعليم وهذه الثقافة مصطبغين بصبغتهما الحضارية الخاصة وفلسفتهما العريقة في القدم ، خاضعين للأسس الفكرية والجذور العميقة التي تؤمنان بها وتعضان عليها بالنواجذ .

والبلاد السوفيتية التي رفضت الأديان قاطبة ، وقطعت شوطاً بعيداً في حرية الرأي ، وشاع عنها أنها تمنح كل إنسان حق الأخذ بما يحب ويختار ، وخلعت ربقة القيود والحدود ، وحاربت فكرة تقديس جميع أفراد البشر ، وفيهم الأنبياء والرسل والزعماء الروحيون ، وقادة الفكر وأصحاب المدارس الفكرية ، وأنكرت الاحتكار بكل أنواعه ومظاهره ، إن هذه البلاد لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنساني عالمي ، وتراث بشري مشاع ، وماء صاف سائغ لا يتلون بلون ، ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم في خارج المعسكر الشيوعي ، ولا بإدخال العلوم والآداب التي نشأت في حضانة المربين البورجوازيين أو الأرستقراطيين ـ كما تقول اللغة السوفيتية ـ والتي طعمت بأفكارهم ونزعاتهم وطرق تفكيرهم ، ويخاف منها إضعاف العقيدة الشيوعية أو التشكيك فيها ، إن روسيا هذه التي حملت راية التحرر والثورة على كل تقليد وتقديس وتحديد وتقييد ، قد أخضعت جميع العلوم والآداب النظرية منها والتطبيقية حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتاريخ لمبادئها الشيوعية ، ولنظريات قادتها ومؤسسي دعوتها « كارل ماركس » و « أنجلس » و « لينين » وربطت بين هذه العلوم وبين أسس أولئك القادة رباطاً وثيقاً مقدساً ، تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى على

عقائدهم وحرماتهم ، وغيرة العرب الأولين على عرضهم وأهلهم ، وتعلن ذلك من غير أن يأخذها في ذلك حياء أو تردد .

وهكذا استطاعت أن توفق بين العلوم التي احتاجت إليها والمبادىء التي آمنت بها وتجعل منها وحدة متكاملة متناسقة ، ولم تترك فجوة بين الحياة التي تعيشها أو تسعى إليها ، وبين المبادىء التي تؤمن بها وتدعو إليها بحماسة ، وقد حاربت في سبيلها حرباً شعواء وسلمت بذلك من الاضطراب الفكري والقلق النفسي اللذين يسودان في عالم تتوزعه القوى المتناقضة ويسوده النفاق والتناقض .

وكذلك البلاد الرأسمالية وإن اشتهرت في العالم بمبدأ التسامح الديني والحرية المطلقة في المذاهب والآراء ، والاستفادة من كل مصدر ومن كل إنتاج بشري في مجال العلم والتجربة ، إن هذه البلاد كذلك لا تسمح بالمواد الأجنبية والمناهج التعليمية التي تبذر بذور الشيوعية والاشتراكية المتطرفة ، وتستهزىء بفكرة الملكية وتثمير الثروة وتنظيمها على غير أسس الشيوعية والماركسية ، ولا تسمح ولا تفكر في استيراد أقل عدد من الأساتذة من البلاد السوفيتية مهما بلغوا في البراعة والإبداع ، والتفوق في العلوم والفنون ، ولم يقف الأمر على هذا الحد ، بل قد أصبح قادة التربية والتعليم في الغرب لا يرون استيراد منهج تعليمي من بلد إلى بلد ولو كانا يلتقيان على العقيدة والفكرة الأساسية في الاجتماع والنظرة الواحدة إلى الإنسان والحياة والكون ، فلا تفكر إنجلترا في استعارة المناهج التعليمية والنظريات التربوية من فرنسا، ولا فرنسا من إنجلترا، ـ وهما الحليفتان في الحروب والزميلتان في الصلح ـ فضلاً عن أن تقتبسا هذه المناهج من ألمانيا المنافسة الدائمة

لهما ، البغيضة القديمة إليهما .

وقد جمعت اللغة الإنجليزية والثقافة الإنجلوسكسانية والمصالح السياسية الكثيرة ، والزمالة المتكررة في حربين عالميتين ، والمشاركة في الدم والنسل إلى حد كبير بين الشعب البريطاني والشعب الأميركي ، وساد في البلدين المذهب البروتستانتي ، فهو مذهب الأكثرية الساحقة في هذين البلدين ، ولكن رغم هذه الالتقاءات كلها لا يرى الموجهون لسير التربية والتعليم ، والواضعون لسياستها في أمريكا استيراد مناهج التعليم وموادها من بريطانيا .

ومن رأيهم أن النظام التعليمي ليس من البضائع التي تستورد من بلد إلى بلد ، كالمصنوعات أو المواد الخام أو مرافق الحياة .

والجزيرة العربية لا تشارك الشعوب الإسلامية في العقائد الدينية والشخصية الإسلامية فحسب ، بل إنها تنوء بأكبر أثقالها وتنهض بأعظم مسؤوليتها من حيث إنها هي الداعية الأولى لها ، والمحافظة الدائمة عليها ، فهي مصدر الدعوة الإسلامية ومعقلها ومأرزها ، وقد جاء في حديث صحيح : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » فنحن أولى بالغيرة على عقائدنا الدينية ، وشخصيتنا الإسلامية ورسالتنا الإنسانية في كل ما نأخذ وما ندع ، وفي كل ما نبني ونهدم ، وفي كل ما نقتبس ونتلقى ، من أي شعب وبلد في العالم ، فنحن أولى بأن نفصل لباس التربية والتعليم والمناهج الدراسية والمواد العلمية على قامتنا ، وأن نخضع أكثر من أي أمة وشعب لمبادئنا وأهدافنا التي نعيش لها ، والرسالة التي أكرمنا الله بها وكلَّفنا إبلاغها إلى الإنسانية كلها في كل عصر ، لقوله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وأخيراً لا آخراً يجب أن لا نخطو خطوة في سبيل التربية والتعليم ، وفي تصميم المدنية ، وفي سبيل أي مخططات نضعها لهذه الجزيرة ، حتى نعرف ونذكر أن هذه الجزيرة العربية التي نعيش فيها الآن ونتحدث عنها ، هي غرس محمد ﷺ ، وثمرة دعوته وجهاده ، وله ولأصحابه وللمؤمنين بدعوته وحدهم الحق عليها ، فيجب أن يكون كل شيء يقوم في هذه الجزيرة - من تنظيمات وتصميمات ، ومخططات ومؤسسات - معترفاً بهذا الحق ، خاضعاً لهذا الأصل ، عائشاً في هذا الظل ، وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص دقيقاً كل الدقة في أن تبقى هذه الجزيرة حصناً حصيناً للإسلام ، متماسكة قوية بعيدة عن كل اصطراع ديني وفوضى فكرية ، فعن جابر بن عبد الله قال : أخبرني عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً »[١] ، وقال : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب »[٢] ، وقد شملت هذه الوصية الحكيمة والتعليم العميق الدقيق إقصاء كل عنصر يحدث في قلعة الإسلام وعاصمة محمد عليه الصلاة والسلام ، الثورة والردَّة ، وعدم الثقة بفضل الإسلام ، وخلود رسالته ، وعمومها للإنسانية ، وانحصار السعادة في العمل بها ، والنجاة في قبولها والإيمان بها .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) الموطأ عن ابن شهاب مرسلاً .

و « لا إكراه في الدين » ، وتاريخ الإسلام لا يعرف محاكم التفتيش ووسائل التعذيب التي امتازت بها القرون المظلمة في أوروبة ، ولكل واحد أن يختار لنفسه ما يحب من الآراء والنظريات ، ولكن لا يسمح بنشر الفوضى وبذر بذور الشك والضعف ، وفقد الثقة بالمبادىء والأسس الإسلامية في هذه الجزيرة ، التي هي قلب الإسلام ، ولا يؤذن بنشر الدعاية للقوى المعادية المنافسة وللمعسكرات الأجنبية في عاصمة الإسلام ، وفي حصن الدعوة ، وفي ثكنة الجيش الإسلامي ، فمن لم تطب نفسه ولم ينشرح صدره للعقيدة الإسلامية ونبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام ، وإمامته الخالدة العالمية وفضل تعاليمه ، ومن آمن بالفلسفات الأجنبية واقتنع بها وتحمس لها ، فليس له محل في الحقيقة في هذه الجزيرة ، ولا يجوز أن تتاح له الفرص وتهيأ له الوسائل في توجيه العقول وتربية النفوس ، ولا يصح مطلقاً أن تقدم له أفلاذ أكباد هذه الجزيرة وخيرة شبابها ، ليصنع من هذه الفطر السليمة ، التي هي من أكرم ذخائر العالم الإسلامي وأنفس ثرواته وأكثرها استعداداً للنبوغ ، مصنوعات لا تنسجم مع العقيدة والدعوة التي قامت عليها وعاشت لها هذه الجزيرة منذ أكثر من ألف سنة ، والتي لا يزال العالم الإسلامي متطلعاً إليها ، متشوِّقاً لها ، بل لا يزال العالم الإنسانيُّ كلُّه مفتقراً إليها ، مقدراً لها كل التقدير .

* * *

التخطيط المدني والتربوي اللائق بمركز الإسلام وأثره في حياة الشعب، ووضع البلاد

(تحدث المؤلف عن التخطيط المدني والتربوي في بلد إسلامي ـ فضلاً عن بلد هو مركز الإسلام ، ومهد البعثة النبوية الأخيرة ـ وخطره وأثره في مستقبل هذا البلد وشعبه ، في كتابه الشهير « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية » ، وهنا قطعتان مقتبستان من هذا الكتاب :)

في حديث عن تخطيط مدني أو تربوي يقوم في مركز الإسلام ، ومهد الدعوة الإسلامية الأولى ، يجب أن لا ننسى أن له شخصية متميزة خالدة ، يجب أن تكون بارزة واضحة ، يخضع لها جميع المخططات والمشاريع ، والنهضات والإصلاحات ، وكل ما يدعو إلى تطوير أو تكييف مع الزمان والمكان ، وأن تكون هي المقياس والأساس ، في كل ما يقبل ويرفض ، وفي كل ما يقتبس ويتلقَّى من الحضارة الغربية والمعطيات العصرية ، وأن يفصِّل لباس هذا التخطيط المدني والتربية والتعليم والإعلام والثقافة على قامة هذه الشخصية الملية ، وقيمتها المعنوية ، والرسالة التي نيطت بها ، وكلفت إبلاغها إلى الإنسانية ، وتمثيلها أجمل تمثيل على أرضها في كل عصر .

وليكن من المقررات التي لا تقبل الشك أن الجزيرة العربية هي

غرس محمد ﷺ ، وثمرة دعوته وجهاده ، وله ولأصحابه ، وللمؤمنين بدعوته وحدهم الحق عليها ، فيجب أن يكون كل شيء يقوم في هذه الجزيرة ـ من تنظيمات وتصميمات ، ومخططات ومؤسسات ـ مقرراً لهذه الحقيقة ، متجاوباً معها ، وأن تكون هذه الأرض بعيدة كل البعد عن كل ما ينافي هذه الحقيقة ،وكل ما يهدِّد سلامتها العقائدية والفكرية ويضعف شخصيتها ، وإلى ذلك نظر رسول الله ﷺ بنظره البعيد ، فأوصى بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، ونهى عن أن يجتمع دينان فيها[1] ، ولاشك أن وصيَّته النبوية الحكيمة لا تقتصر على إخراج غير المسلمين أجساماً ظاهرة ، بل إنها تشمل إخراج نفوذهم وتوجيههم وحضارتهم ودعواتهم ، كما يفهم كل عاقل .

وزيادة على ذلك فإن في هذه الجزيرة ، الحرمين : مكة البلد الأمين : الذي ولد فيه الرسول ﷺ ، وأكرم بالرسالة ، ويقع فيه الحج ، ويدور حوله ، والمدينة : التي هاجر إليها الرسول ﷺ وأقام فيها مسجده ، ومدرسته ، والمجتمع الإسلامي المثالي الأول ، منها انطلقت الدعوة الإسلامية ، والمدُّ الإسلامي إلى أنحاء العالم ، وهذه مسؤولية عظيمة خالدة ، فيجب أن تكون هذه البيئة أمينة للحياة الإسلامية ، ومرآة صافية لها ، حتى يستطيع كل وارد إليها أن يلمسها ويتذوقها بسهولة ، لأن الله قد قضى أن تكون هذه الأرض مركز الحج إلى آخر الزمان ، ومثابة للمسلمين في كل سنة ، ولهم الحق بأن يؤمنوا بأنهم يقصدون بلداً هو معدن الطهر ومولد الدين ، وعاصمة الإسلام الروحية والخلقية ، بعيد عن التيارات المعادية للإسلام ، والأخلاق

---

(١) راجع صحيح مسلم وكتب الحديث .

المنافية لتعاليمه وتأثيره ، بعداً يمكن وقوعه وتصوره في هذا العصر المتطوِّر ، لم يخضع للحضارة الغربية وقيمها ومثلها ، خضوع بلد واقع في أقاصي العالم الإسلامي ، لا يحمل هذه الشخصية ، ولا يضطلع بهذه المسؤولية .

وأن يكون على شيء من البساطة والطبيعة ، وعلى شيء من التقشف ، فيستشعر فيه الوافدون من أنحاء العالم البعيدة ، بالجو الذي كان المسلمون الأولون يقضون فيه مناسكهم ، ويشعرون بشعورهم أو قريب من شعورهم ، وأن لا يبقى البيت وحده والحرم وحده ، جزيرة مختصة بالعبادة والتأمل والهدوء ، يموج حولهما بحر المدنية الهائج ، تضرب أمواجه العاتية أسوارهما ، وقد تجوس خلال الديار .

والحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية وفي مشاعر الأمة وأحاسيسها ، وتجريد أمة من حضارتها الخاصة التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيب كبير للذوق الديني الخاص ، وطابع هذه الأمة الخاص ، مرادف لعزلها عن الحياة وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيِّق ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، وأثر هذا التحويل كان عميقاً دائماً في حياة الأمم والمجتمعات البشرية ، فذابت تدريجياً في بوتقة الأمم التي اقتبست منها هذه الحضارة بمعانيها الواسعة ، وكان انسلاخها عن العقيدة التي بقيت متمسِّكة بها سهلاً .

وليس المقصود من إبراز ناحية خطر الحضارة الغربية واقتباسها على الشخصية الإسلامية ، وكيان الأمة المسلمة هو تحريم الاستفادة من الحضارة الغربية في مرافق الحياة واقتباس بعض ما توصل إليه العلم

والصناعة والاختراع في الغرب من وسائل تسهيل وترفيه ، وإغلاق الباب على مصراعيه ، فإن ذلك لا يقوله عاقل فضلاً عن مطلع على روح الدين وتعاليمه ، والإسلام لم يزل ولا يزال واسع الأفق ، متفتِّح القلب والنظر في الاستفادة بكل ما يصلح وينفع ، ولكن مفهوم الحضارة الغربية في هذا المقال هو أوسع من اقتباس الآلات والمخترعات والتجارب المفيدة في الحياة العامة ، إنها تشمل الأفكار والإقليم والمفاهيم والمثل وصبغ الحياة كلها بالصبغة الغربية والتخطيط المدني الشامل ، واقتباس أساليب الحياة التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام ومعاييره ، في الطهارة والنظافة ، والاعتدال والاقتصاد ، والوقوف عند الحدود التي رسمتها الشريعة الإسلامية ، ويعسر على المسلم معها التأدب بآداب الشرع والعمل بالسنن النبوية الكثيرة ، ويبتعد بها عن الحياة الإسلامية ، التي عاشها الرسول والصحابة والتابعون لهم بإحسان ابتعاداً كلياً ، وتضفي على الأمة شخصية أجنبية لا تعرف فيها إلَّا بالأسماء الإسلامية أو بالأزياء التي لا تزال بعض الشعوب العربية أو الإسلامية محافظة عليها ، أو عندما يرتفع صوت الأذان من منائر مساجدها ، أو عندما تدخل في المساجد ، على قلة عدد الداخلين في بعض البلاد وكثرتهم في بعضها ، فلا يربطها بالإسلام إلا خيط رقيق من عقيدة وتقاليد دينية ، إذا انقطع هذا الخيط ـ لا سمح الله بذلك ـ انقطع كل شيء .

وأعتقد أنه من الميسور جداً الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات والمخترعات ، وما وصل إليه العلم الحديث ، وبين ما تمتاز به الحضارة الإسلامية من جمال وبساطة وجدِّية وعناية بالطهارة والنظافة ، والابتعاد عن الإسراف والتبذير والإغراق في

المظاهر الخارجية ، إذا وفقت الحكومة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية للتخطيط المدني المستقل ، البعيد عن التقليد الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، وإذا توفَّر عندها الذكاء ، والأصالة ، والإيمان بفضل التعاليم الإسلامية والحضارة الإسلامية التي تنبثق عنها وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها ، وكان هذا التخطيط أجمل وأفضل وأكثر جلباً للأنظار واستهواءً للقلوب ، وأبعث على الاحترام والتقدير ، ويؤم هذه المدن عدد من السيَّاح بل من قادة الفكر وروَّاد العلم ، أكبر من العدد الذي يؤمها الآن من المتنزهين ، وربما يكون هذا الطراز الجميل الأصيل من المدنية باعثاً لكثير من الأقطار الغربية على تقليد بعض الجوانب واقتباسها وعلى الأقل على التفكير فيها وتقديرها ، كما كان الشأن مع الحضارة الإسلامية الأندلسية التي كان لها أثر عميق في الحضارة الغربية ، وفلسفتها وآدابها .

ولكن مع الأسف الشديد لم يوفَّق لذلك قطر واحد من الأقطار الشرقية والغربية ، والعربية والحكومات الإسلامية ، ولم تكن عند أحدها جراءة كافية تحملها على مجرَّد هذه التجربة ، وكانت النتيجة أن أصبحت هذه الأقطار كلها نسخة ناقصة من المدنية الغربية ، وصورة شاحبة لها ، لا تسترعي اهتمام الغربيين ، ولا تحرك فيهم مشاعر الإجلال والاحترام ، وإنما يقولون إذا زاروا هذه المدن ، متفرجين أو مشاهدين : « بضاعتنا ردت إلينا » .

إن التصميم الحضاري محنة ذكاء ، وعصامية وعبقرية ، وقوة إرادة ، وفقه دين ، ليس عملية نقل وتطبيق ، وتعديل وتحسين ، إن الإسلام قد حدَّ حدود الحلال والحرام ، وحرَّم تخطِّي هذه الحدود ،

وأفسح المجال للتمتع الكريم النزيه ، في غير إسراف وإجحاف ومسٍّ بحقوق الآخرين وحظوظهم ، ومن غير تعرُّض لخطر الوقوع في الإثم والفحشاء والتبذير ، والحياة التي لا تليق بالذكور الرجال ، والكرام الأقوياء ، وهذه هي الروح التي تسيطر على أحكام اللباس والطعام والعِشرة والاجتماع والمتعة واللذة ، وحثَّ على مراعاة المصالح ، والتجنُّب من وسائل القوة والدفاع ، واقتباس الصالح النافع من العلوم والحكمة ، بشرط أن لا يكون ذلك على حساب مقوِّمات الشخصية والكرامة القومية ، وبشرط أن لا ينشىء ذلك في الأمة شعوراً بالنقص ، وقصوراً في الثقة ، وروح اندفاع سريع متهور إلى تقليد الآخرين ، والتشبع بروحهم ، وإجلال حياتهم وتقديسها .

إنها أساس حضارة تملك نعومة الحرير وصلابة الحديد ، نعومة الحرير في مسايرة المقتضيات والحاجات والحقائق ، غير معترضة ولا مختلفة ، وغير متخيلة ولا مبالغاً فيها ، وصلابة الحديد وثبات الجبال على حدود العقيدة والأخلاق ، إنها مفتوحة العقل والضمير ، منشرحة الصدر ، لاقتباس العلوم النافعة التي نشأت وتكوَّنت في جانب بعيد في هذا العالم ، واقتباس النظم والأساليب التي لا تمسُّ جوهر الدين ولا تغيِّر وضع الأخلاق .

* * *

صلة نظام التربية والتعليم بواقع المجتمع
واتجاهاته وميوله

[عقد المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي في مكة المكرمة في ١٢ربيع الآخر إلى ٢٠ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٧هـ (٣١مارس ، ٨ أبريل ١٩٧٧م) تحت إشراف جامعة الملك عبد العزيز في جدة ، حضره المعنيون بقضية التربية والتعليم في العالم الإسلامي والغربي وأصحاب الاختصاص في هذا الموضوع والممارسون له في الشرق والغرب وكان موضوع مؤلف هذا الكتاب « التعليم في المملكة العربية السعودية ، طرق الاستفادة منه وضرورة إزالة العقبات عن سبيله » ، وقد ألقيت هذه المحاضرة في ١٩ من ربيع الآخر ١٣٩٧هـ (٧/ أبريل ١٩٧٧م) في جلسة رأسها صاحب السمو الملكي الأمير محمد الفيصل ابن المرحوم جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز] .

وهنا قطعة مقتبسة من هذه المحاضرة :

إن كثيراً من رجال التعليم والتربية في الشرق والغرب اعتادوا قديماً وحديثاً أن يبحثوا في قضية التعليم والتربية ، كقضية منفصلة عن الحياة والمجتمع ، ليست بينهما صلة إلا الصلة المؤقَّتة العارضة ، كأن التعليم قنطرة يعبر بها الإنسان نهراً من الأنهار ، ويصل من بر إلى بر ، ثم يعود إلى موطنه الأول بنفس السيرة والنفسية والخلق والفكرة ، والتعليم

عندهم حاجة من حاجات البشر يقضيها الإنسان ثم يعود إلى بيته ، كما يعود من السوق ومن المزرعة بل من ميدان الحرب ، فلا يحكمون على نجاح التعليم وإخفاقه إلا بالمعلومات التي تلقنها الرجل المثقف ووعاها ، وبالأرقام التي حصلها في الاختبارات ، والشهادات التي يحملها ، واللباقة التي يتكلم بها والأناقة التي يعيش بها ، ولا يقيسون نجاح عملية التعليم والتربية بمقاييس عملية واقعية اجتماعية ، وقد صار كثير من هواة التعليم يقيسون رقي بلد ، ويحكمون على نهضته ومستواه الحضاري ، بعدد الجامعات الموجودة في هذا البلد ، وإن كانت غير مؤثِّرة في حياة البلاد مطلقاً ، تعيش فيها كقنصليات أجنبية ، وسفارات خارجية لا تؤثر في الشعب ، وقد تكون هذه الجامعات عاملاً قوياً من عوامل التقويض الاجتماعي ، والفوضى الخلقية والفكرية ، وقد تكون أوكار الفساد والانحلال والقلق والتذمر والتعطل والبطالة ، ويكون المتعلمون فيها أو المتخرجون منها طليعة دعاة الإفساد والاضطراب ، كما هو الشأن في كثير من البلاد الشرقية ، الآسيوية والإفريقية .

إنها نظرة تقليدية غير واعية يجب أن تتطوَّر وتتغيَّر ، ولكن نحن المسلمين ـ وفي مقدمتهم قادة الفكر وعلماء التربية ـ رواد الحقيقة ، مقرِّرين للواقع ، قوامين بالقسط ، شهداء لله ، غير مسترسلين إلى الخيال ، والمعاني الشعرية ، والنظريات التقليدية ، فلنستعرض واقعنا ، ولنقارن كتاجر جاد مخلص ، بين ربحنا وخسارتنا ، وبين المسافة التي قطعناها والمسافة التي يجب علينا أن نقطعها ، وبين المنجزات والمعطيات ، وبين المشاريع والمخططات .

إن هذه البلاد هي المختبر الأول للتعاليم الإسلامية ، والدعوة

الإسلامية ، وعلى هذه الأرض الطيبة تمثلت أروع رواية من روايات الصدق والإخلاص ، والوفاء والفداء ، والفتوة والبطولة ، التي شهدها التاريخ ، فهي صفحة منشورة ، كتب كل سطر من سطورها من نور ، ويلقي على كل من يعيش فيها ويزورها دروساً في العقيدة والخلق والسيرة ، ويجسم التاريخ الإسلامي بحيث يفهمه كل إنسان ، ويراه رأي العين ، إن الجامعات الغربية الشهيرة ، والمراكز الثقافية الكبيرة تلجأ لغرس المعاني والحقائق التي تعلمها ، ولتقريب البعيد ، وإيضاح الغامض وإعادة المناظر التاريخية ، والحضارات القديمة وتجسيمها ، إلى مسرحيات وتمثيليات ، وإلى رحلات وجولات في الآثار القديمة ، والمدن العتيقة ، وإلى مخيمات ومهرجانات ، يقضي فيها الطالب وقتاً محدوداً في جو تاريخي أو حضاري خاص ، تحلِّق عليه روح تختلف عن الروح العصرية ويستنشقون نسائم العهد القديم ، وكلها محاولات صناعية ، بعيدة عن الحقيقة .

أما الطالب الذي يعيش في هذه الجزيرة ، فإنه يستحضر هذه المعاني كلَّها ، ويعيش فيها ، فكلُّ ذرة من ذرات هذه الصحراء ، وكلُّ جبل من جبال هذه الجزيرة ، يذكره بحادث من حوادث التاريخ الإسلامي الأول ، ويذكِّر بما قامت له هذه الجزيرة وعاشت وبما أريق في سبيله من الدماء الزكية ، ومما كانت عليه في الجاهلية من جهل وفقر وخمول ، وبما عادت إليه بعد الإسلام من علم وغنى وعزٍّ ، وبمن يرجع إليه الفضل في ذلك ، وما هو مصدر هذا الانقلاب ، والتحول الذي ليس له نظير في تاريخ الإنسان .

ثم إن هذه البلاد جعلها الله مركزاً للحج ، وله روحانيته ، وتأثيره

في النفوس والقلوب ويجتمع فيه أكبر عدد يجتمع في أي مكان في العالم ، من أهل القلوب المؤمنة ، والنفوس الصافية والأرواح الملتهبة ، الذين ساقهم الإيمان والحنان وحب مركز الإسلام ومهبط الوحي ، يتهافتون عليه كالفراش على النور ، والظماء على الماء ، يتمنون أن يمشوا إليه على أهدابهم ، ويستهينون في سبيل ذلك بكل غالٍ ، ويستعذبون المشاق ، فيتكهرب هذا الجو بالإيمان والحنان ، ويسري تياره إلى النفوس الخامدة ، والجدران والأخشاب الجامدة ، فهل هنالك مدرسة أقوى من هذه المدرسة الإيمانية ، وأقدر على أداء رسالة العلم والأخلاق ، وشحن النفوس بقوة جديدة تتغلب على التيارات المادية والاتجاهات العصرية ؟! .

ثم إن اللغة التي تسود في هذه البلاد هي اللغة العربية التي نزل فيها القرآن ، ونطق بها الرسول ، والقرآن يتلى في كل مكان ، والأذان يعلو ويدوي في كل ناحية ولا يوجد في هذه الجزيرة ـ والحمد لله ـ دينان ، إنما يحكمها ويعيش فيها دين واحد ، هو الدين الإسلامي الحنيف ، ثم أكرم الله هذه الجزيرة أخيراً بأن وفَّق حكومتها ـ المملكة العربية السعودية حرسها الله ـ لرفع شعار الإسلام ، وتحكيم الشريعة ، وتنفيذ الحدود ، والقوانين الشرعية ، وقد قامت على أساس الدعوة ، وعلى التوحيد والسنة ، واتباع السلف الصالح ، فكان كل ذلك عوناً على تهيئة الجو الملائم لنشوء الفرد المسلم ، الصالح الواعي ، وتيسير مهمة التعليم والتربية في هذه البلاد ، وتذليل العقبات التي تعترض في سبيلها ، وإزالة جميع العوائق التي تواجهها البلاد غير الإسلامية ، أو البلاد التي امتحن فيها الإسلام والمسلمون بقيادات محاربة للإسلام ، أو منافقة مضطربة أو ضعيفة الثقة بصلاحية الإسلام في هذا العصر .

هنا نقف وقفة قصيرة أيها السادة ! ونقول : كان من المعقول المنتظر ، بل من المفروض المؤكد ، أن يكون الشاب المثقف في هذه البلاد شاباً مثالياً في استقامة الخلق وحسن السلوك والتماسك أمام المغريات ، والتمرد على الشهوات ، وفي قوة النفس والإرادة والصبر على المكاره والمشاق ، والدأب على العمل والتسامي عن مواضع الضعف ، والتضحية في سبيل راحة الوافدين إلى بيت الله ، لا يكون أقل من اجتهاد قريش في رفادة الحجاج ، وحسن وفادتهم قبل الإسلام ، وأن يكون الرجل المثقف بقدر ثقافته أكثر تحلِّياً بهذه الأخلاق ، من مواطن لم تقدر له هذه الثقافة ، وكل من علا كعبه في العلم والثقافة كان خليقاً بأن يقوم على القمَّة من هذه الأخلاق ، لأنه نشأ في أحضان ثقافة إسلامية هادفة مؤمنة خططت تخطيطاً دقيقاً أميناً ، وأنفقت عليها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وجند لها أفواج من المسلمين والمربين ، واختير لها خيار الأساتذة والموجهين ، وقامت هذه المدارس تحت ظلال الكعبة وفي رحاب المسجد النبوي ، وفي حجر الإسلام ومهده .

إن نتيجة الجهود التعليمية التي تبذلها المملكة ووزارة المعارف الموقَّرة ، نتيجة ذات قيمة لا ينكرها عاقل منصف ، قد عرف هذه البلاد في ماضيها وحاضرها ، وعرف ما كانت عليه هذه البلاد من أمية فاشية ، وفقر في المدارس ومراكز التعليم حتى التعليم البدائي ، وبعد البادية العربية عن المبادىء الأولى للعلم وللإسلام وللإنسانية ، وما سببه الجهل لتعاليم الإسلام والانطواء على النفس والبادية ، من عادات همجية واستهانة بحياة الإنسان ، بل بحياة المسلم ، والجراءة

على سفك الدماء ونهب الأموال ، وقلة الوسائل للاتصال بالعالم الخارجي وغيبة مظاهر الثقافة الأولى ، فإذا قارنَّا بين الماضي القريب والحاضر المستمر ، رأينا انقلاباً مدهشاً وقفزة واسعة ، أشبه بالخيال من الحقيقة ، ولم يسعنا إلا الاعتراف بضخامة عمل المملكة العربية السعودية أيدها الله ، وإنجازاتها في مجال النهوض بالبلاد عملياً وثقافياً .

إن النتيجة كانت أضخم وأعظم ، وأدعى للدهشة والاستغراب إذا تعاونت العوامل المؤثرة في تكوين السيرة ، وتثقيف العقل ، وسبك الخلق أكبر تأثير ، وأزيل التناقض الذي يعانيه المسلمون في كل بلد ، فلم تكن فجوة بين مراكز التعليم التي تنحصر في جدرانها وبين الحياة التي تموج موج البحر ، فلا يؤتي التعليم ووسائل التربية أكلها ولا تتحقق أغراضها ، إلا إذا كان هنالك انسجام كامل ، وتعاون وثيق بين هذه المؤثرات الخارجية والداخلية ، وكانت تسير على خط واحد إلى غاية واحدة .

وهنا أذكر ـ بطريق الإشارة والإجمال ـ العقبات الرئيسية التي تعترض في سبيل استفادة البلاد والأمة ، بالمؤسسات التعليمية والتربوية المنتشرة في المملكة ، والتي إذا لم تحبط مساعي قادة التعليم وموجهي التربية ، وكبار الأساتذة والمعلمين ، فإنها تحصرها في نطاق ضيِّق محدود جداً ، ليس كفاء هذه الجهود العظيمة ، وهي كما يلي :

١ ـ إن التعليم ـ مهما كان راقياً ، ومهما اتسعت شبكته ودقت ، وأحكم صنعها ـ لا يعطي ثماره الشهية ، ولا يؤثر تأثيره المطلوب إذا كان المجتمع يجتاز بمرحلة عنيفة غير عادية من الحالة النفسية أو

الخلقية ، وكان مصاباً « بالهستيريا » المادية تحكمه المثل الزائفة والقيم السقيمة من تقديس المادة ، وتمجيد أصحاب رؤوس الأموال ، بصرف النظر عن قيمتهم الذاتية ومستواهم الخلقي ، هنالك تذوب هذه الطبقة من المثقفين الجامعيين وغير الجامعيين حتى المفكرين منهم والباحثين والمحققين في هذا الاندفاع القاهر كما تذوب قطعة صغيرة من اللحم إذا ألقيت في معدن الملح وتتحول في وقت قريب إلى قطعة من الملح .

إذا لا يجوز التغاضي عن الحالة الاجتماعية في البلد وما تجتاح المجتمع من موجات وتيارات ، ولا بد من العناية بتقويم المجتمع ومكافحة الأوبئة والأمراض التي تفترسه وتنخر هيكله ، وذلك عن طريق الدعوة الدينية والخلقية ، وعن طريق الأدب الصالح والصحافة الهادفة التي تتقي الله في أعراض الناس وأخلاقهم ، وعن طريق سن القوانين والحسبة إذا كان لا بد من ذلك .

٢ ـ لا بد من قدوة صالحة ونماذج عملية في مختلف الطبقات في الاقتصاد وبساطة العيش والإيثار على النفس ، وعلوِّ الهمة في خدمة الأمة والبلاد والاحتساب عند الله ، والقدوة الحسنة ـ كما يعلم الجميع ـ أكبر مؤثر نفسي في كل عصر وجيل ، وهي التي بعثت في الأجيال الماضية الروح والطموح ، فكان منها العلماء والمؤلفون ، وباحثون ومحققون ومصلحون ومجدِّدون ، من الطراز الأول ، احتسبوا عملهم في التعليم والتأليف والإصلاح والتجديد ، لا يريدون على ذلك جزاءً ولا شكوراً ، وكان منهم عماليق في الفكر ، ونوابغ في الإنتاج قد حوَّلوا مجرى التاريخ أحياناً كثيرة[1] ، أما المتخرِّجون من مدارسنا

---

(١) ليراجع للتفصيل كتاب المؤلف « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » (١-٢) .

وجامعاتنا اليوم فقد انساقوا مع التيار الجاري ، وسايروا عصرهم ومجتمعهم في بناء المستقبل وتكوين حياة سعيدة ، وأصيبوا بمرض نستطيع أن نسميه : CAREERISM .

٣ ـ إن مدرسة الإعلام في كل بلد قد أصبحت أقوى من كل مدرسة ، وأوسع من كل مدرسة ، والتي أصبحت في البلاد « المتمدنة الراقية » كالهواء والماء الذي لا يستغني عنهما إنسان ، والتي أصبحت لها الكلمة الأخيرة في تقويم القيم ، وفي موازين الأشياء وفي تصريف الميول والرغبات ، والتي صار بعض الخبراء يقولون إنها كالقلب ، إذا صلح صلح جسد المجتمع ، وإذا فسد فسد جسد المجتمع ، وكذلك الصحافة التي تقرِّب البعيد ، وتبعِّد القريب ، وكان لها من السيطرة والنفوذ أن سماها الغرب بـ « صاحبة الجلالة » .

وقد كانت التوصيات لوزارة المعارف حكيمة ودقيقة ، إذ قالت في إحدى نشراتها : « وسائل الإعلام والنشر » والتوعية والإرشاد ، ورعاية الشباب تخدم الفكرة الإسلامية وتخضع ـ في أهدافها ووسائلها ـ للسياسة التعليمية . وتوجه عن طريق المجلس الأعلى للتعليم[١] .

وتقول : « تسهم وسائل الإعلام في التوعية العامة التي تمهِّد لتحقيق أغراض التعليم ، وإزالة العقبات التي تحول دون تنفيذها كما تسهم في تنمية روح الإيجابية بين المجتمع والمدرسة في التعاون مع الجهات التعليمية ، للوصول إلى ما يحقق أهداف التربية والتعليم على

---

(١) تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ترجمة الأستاذ عبد الرحمن صالح عبد الله ـ ص(١٣٧) .

خير الوجوه »[1] .

إن عدم وجود الانسجام التام في هذه المؤسسات العظيمة ، والوسائل القوية المؤثرة ، قد أحدث تناقضاً في مجتمعنا الإسلامي ، وبلبلة فكريَّة ، وحيرة مردية ، يعانيها الشباب المسلم ، وفي الحقيقة عقَّد مهمة رواد الإصلاح ، ورجال التربية ، ودعاة الفضيلة والاستقامة والاعتدال والصبر وعسَّرها ، وجعل كثيراً من المشتغلين بمهنة التعليم ، والمكافحين في سبيله يعتقدون في بعض الأحيان أنهم يضيعون جهودهم ووقتهم .

إن الشاب المسلم يعالج صراعاً مريراً ، هائلاً عميقاً ، إنه يتلقى من مؤسسة الإعلام ، ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون ألواناً مختلفة من التوجيه ، إنه يسمع إذاعات وأحاديث وبرامج قد تقضي على البقية الباقية من آثار التربية الإسلامية ، وتحدث فيه ثورة فكرية ، وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي « صاحبة الجلالة » في نظر كثير من الناس تقدِّم إليه في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يتلو شيئاً آخر ، فأول ما يقع عليه نظره صور مهيجة ، وعناوين مثيرة للغرائز ، ومقالات باعثة للشكوك مزعزعة للإيمان والثقة ، فيتلقى هذا في رغبة ونهامة ، وفي شوق واستجابة ثم تقع في يده كتب علمية ، لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة ، صادرة من أقلام أناس ، آمن هذا الشاب بفضلهم وعبقريتهم ، فيقرأ ما يشكِّكه في الدين ، يشكِّكه في التاريخ الإسلامي ، يشكِّكه في

---

(١) تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ص(٣٤٧) .

مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككه في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي قلدتها ، يشككه في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقى هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة الطريفة من أفكار ومبادىء وإغراءات ، من نظريات علمية ، ويقع من كل ذلك في حيرة لا تعدلها حيرة ، فخليق بكل هذا أن يقع الإنسان ـ وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل ، حصيف الرأي ـ في حيرة فكيف بالشباب الغض الناعم ، وكيف بهذه البراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد ، كيف يرجى منه أن يقف أمام التيارات المتصادمة .

إن مثل ذلك كمثل عَجلة أو مركبة ركب فيها فرس في الأمام ، وفرس في الوراء وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً ، أن يكون ركَّابها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحة يميناً وشمالاً .

إن الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية الكبرى ، التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، غرس في قلوب الناشئة ، وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثير من الكهول بذوراً من الشك والاضطراب ، تشكَّكوا حتى في وجودهم ، تشكَّكوا في كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات ، إن هذه الكتب التي أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف وتصفيق حادٌّ ، غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض .

وقد أصبحت زيادة قسط مواد التسلية ، بل البرامج الشائقة المثيرة

غير الهادفة في برامج الإذاعة والتلفزيون ، قضية شاغلة لتفكير رجال التربية ، والمعنيين بقضايا الشباب في الغرب وفي الشرق .

وقد دفعت هذه الزيادة الشباب من الجدية والصبر ، والعكوف على الدراسات ، وإعداد الواجبات المدرسية إلى تسلية النفس ، والتهرُّب من كل ما يتطلب العناء والمثابرة ، والعمق ، بل حمل ذلك كثيراً من رجال التربية ، وعلماء النفس على الاعتراف بأن هذا الاتجاه قد أغرى كثيراً من الشباب بإجراء تجارب في المغامرة ، والاعتداء على النفوس والأموال ، وأفلت الزمام من قادة التربية ، وأولياء الأسر والبيوتات ، وهبط مستوى ثقافة الطالب هبوطاً كبيراً ، لأن هذه البرامج قد استحوذت على حيز كبير من وقته وجهده ، وهي قضية تستقطب عناية المعنيين بقضايا التعليم والتربية وتطلب منهم حلاً سريعاً ، وعلاجاً ناجعاً .

٤ ـ وأشد من هذا خطورة هو ما اعتاده كثير من بلادنا الشرقية العربية ، والإسلامية ووزارات التربية فيها من إرسال بعثات من الشباب إلى أوربة وأمريكا ، ولم تنضج عقولهم بعد ، وليست عندهم حصانة خلقية ، ويزيد الأمر خطورة إذا كان فيها كثير من الشباب المراهقين ، وهي أدقُّ مرحلة من مراحل حياة الطالب ، وأشدُّها حساسية ، إن توجه هؤلاء الشباب إلى بلاد موبوءة ، قد انتشر فيها الجذام الخلقي ، واضطربت فيها أسس الحياة الفاضلة ، والقيم والمثل ، اضطراباً كبيراً ، وأفلت الزمام من يد رجال التربية ، مجازفة بشخصيات الجيل الصاعد الذي سيتسلم زمام القيادة والتوجيه ، وأملنا في أنهم سيجنون أفضل ثمار الثقافة الغربية ، والعلوم التجريبية النافعة ، ويتحرزون من

مساويها ، وثمارها المرة ، إغراق في التفاؤل ، ومخالفة لطبائع الأشياء ، ومنطق الواقع ، خصوصاً إذا كانت إقامتهم في أسر أوربية أمريكية ولم يكن نظام للأروقة الخاصة التي يسودها الجو الإسلامي ، ويهيأ فيها الزاد العلمي والتوجيهي ، فما مَثَل هؤلاء الشباب في هذا الخضم من الحضارة الغربية إلا كما قال الشاعر القديم :

ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له   إيـاك إيـاك أن تبتـل بـالمـاء!

٥ ـ وليس أقل من هذا كله خطورة ودقة قضية تعليم الفتاة المسلمة ، فإنها قضية تحتاج إلى دقة واستقلال فكري ، وتحرر من تقليد مفهوم التعليم النسوي ، الذي أخذت به الأقطار الغربية والشرقية في الظروف التي تختلف عن ظروفنا كل الاختلاف ، وتحتاج إلى تخطيط فيه الإبداع وفيه الأصالة ، وفيه الذكاء ، وفيه الجراءة ، وتاريخ البلاد والأمم يشهد بأن أعظم أسباب الانحطاط والفوضى التي أدت إلى زوال الأمم وانقراضها ، وانحطاط المدنيات وانهيارها ، هو تفكك نظام الأسرة واختلال الميزان في الحياة المنزلية ، وزهد النساء فيها ، والتهرُّب من مسؤولياتها وانتشار السفور الوقح ، والتبرُّج الجاهلي ، فما رأينا مجتمعاً مائلاً إلى التدلِّي والانحطاط ، وأمة تسير بخطى سريعة واسعة إلى الزوال والانقراض ، إلا وقد فشا فيها هذا الداء ، وبدأت السيدات فيها ينصرفن عن الحياة المنزلية وتكاليفها ، ويزهدن في « الأمومة » ومسؤولياتها وحضانة الأولاد ، وإنشاء الجيل الجديد ، والاعتناء بتكوين البيت الصالح الذي يجد فيه الرجل جميع أسباب الراحة والهدوء ، وتخيل إذا دخله أنه في الجنة ، وبدأت السيدات فيها ينصرفن عن كل ذلك إلى مشاركة الرجال في وظائفهم ، ومجالات نشاطهم ومزاحمتهم بالمناكب ، ومسايرتهم ، بل ومنافستهم

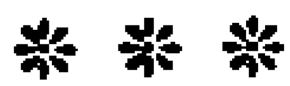
في جميع ميادين الحياة ، وهذا الذي مني به المجتمع الغربي ، فتفكَّك نظام الأسرة وفسدت الخلايا الاجتماعية ، التي كانت مركز القوة ، ومنشأ الجيل الجديد ، الذي ساد العالم في الماضي ، وقد بدأ علماء الاجتماع في الغرب يعترفون بهذا الخطأ في صراحة وجراءة ، ولكن الزمام قد أفلت منهم ، وبلغ السيل الزبى ، وفاضت كأس الحياة ، وهم يتخوفون نهاية هذه الحضارة قريباً .

فتقليد هذا النظام في بلد شرقي إسلامي ، فضلاً عن مركز الإسلام ومعقله ، وإعادة هذه التجربة الفاشلة ، مخاطرة بسلامة هذه البلاد ، وشخصيتها ورسالتها ، فلنعتبر بهذه التجارب ، ولنكن على حذر من إعادتها في بلادنا التي يتوقف عليها مستقبل الإسلام ، والسعيد من وُعظ بغيره .

وأختم هذا البحث الذي قد طال بعض الطول ، والحديث ذو شجون ، بكلمتي الأخيرة ، وهي أن سياسة التعليم في هذه البلاد التي عرضنا بعض نماذجها ، والتقطنا منها أهم توصياتها ، سياسة إسلامية رشيدة ، والمناهج التعليمية مناهج خاضعة لهذه السياسة بشكل عام ، وهي مستعدة لا شك لتطوير أفضل ، وترقية مثلى ، وإن وسائل هذا التعليم التي تملكها المملكة العربية السعودية ، تستخدمها بهمة عالية ، وأريحية فائقة ، واستعداد الشعب للانتفاع بها عظيم ممتاز ، ومساعدة البيئة والأجواء ، التي تغذي العاطفة الإسلامية وتذكر برسالة الإسلام متحقِّقة متوفِّرة .

وكل ذلك كفيل بإبراز النتائج الجسيمة العظيمة ، وتحقيق أهداف التعليم الإسلامي تحقيقاً لا يوجد له نظير في العالم الإسلامي ، كل

ذلك ممكن بسهولة إذا أزيلت الموانع ، والمتناقضات ، وحصل الانسجام التام بين عوامل التأثير والتكوين ، ومدارس التربية والتعليم ، وسدت المنافذ التي يتسرب منها الفساد والضعف والتناقض ، داخلية كانت أو خارجية ، وما هو بعمل شاق عسير على هذه المملكة العظيمة التي قامت على أساس العقيدة والدعوة ، وعنيت بقضية الإسلام في كل بلد ، وتكفلت التعليم الإسلامي ، والدعوة الإسلامية في القارات البعيدة ، وحملت راية التضامن الإسلامي ، ولا على وزارة المعارف الموقرة التي يقودها رجال العقيدة والدعوة ، وأهل الغيرة الإسلامية ، والفقه في الدين ، ولو تحقق كل هذا ، كان حدثاً كبيراً في تاريخ الإسلام المعاصر ،وكان قدوة لكل بلدٍ إسلامي ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .



ليست التربية إلا أداة مؤثِّرة وفيَّة لترسيخ عقيدة الأمة ، ونظرها إلى الحياة والكون في قلوب الناشئة

(من مذكرة قدمت إلى مؤتمر وزراء التربية في الدول العربية)

[انعقد في سنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٨م) مؤتمر وزراء التربية في الدول العربية في الكويت ، البلد الإسلامي العربي ، وطلب بعض الإخوان في البلد ، والمعنيين بقضية التربية ومستقبل الأجيال الصاعدة في الأقطار الإسلامية ، من مؤلف هذا الكتاب أن يقدم مذكرة إلى هذا المؤتمر الموقر بصفته صاحب دراسات وتجارب وكتابات في موضوع التربية ، وأميناً عاماً لندوة العلماء في الهند ، فقدَّم المذكرة التالية] :

حضرات أصحاب المعالي وزراء التربية في الدول العربية الموقرة !

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فأنتهز فرصة اجتماعكم في البلد الإسلامي العربي العزيز ، الكويت ، لدراسة القضايا التعليمية في الحكومات العربية ووضع مخططات لها ، فأقدم إليكم هذه الرسالة كمعنيٍّ بموضوع التعليم في الأقطار الإسلامية والشرقية ، وكعضو متواضع في هذه الأسرة الكريمة التي تلتقي على صعيد الإسلام وعلى صعيد الاهتمام بشؤون العالم العربي ، وعلى موضوع التعليم ، أرجو أن تحظى بعنايتكم .

لقد أصبح من المقرر في كل بلد واع حريص على سلامته وشخصيته ، أن المعارف ليست إلا جهازاً يغرز المعاني والأسس التي يؤمن بها هذا الشعب ودرجت عليها أجياله ويعيش بها وفيها ، في التاريخ الماضي وفي العالم المعاصر ، فمن أول واجبات نظام التعليم في جميع البلاد المتمدِّنة الواعية أن يغرز هذه العقائد والحقائق في قلوب الناس ويغذِّيها حتى يؤمن بها كحقائق علمية ويتحمس في سبيل الدعوة إليها والمثابرة عليها ، وقد أصبح من المقرر عند أساطين التعليم الحديث في الغرب أن كل شعب من شعوب العالم إنما يصوغ نظامه التعليمي وفق نظرية الحياة التي يؤمن بها ، فيقول Sir Percy Neinn الذي يحتل الصدارة في خبراء التعليم في بريطانيا في مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

« لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتعليم ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً أن التعليم هو الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها .

إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة وتربي التلميذ تربية تمكنه من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمدّ يده إلى الأمام » .

إن جون ديوي (John Dewey) الذي كان تأثيره في نظام التعليم الأمريكي أكبر من تأثير كل رجل في هذا العصر ، يقول في كتاب « الديمقراطية والتربية » Democracy And Education : « إن الأمة إنما تعيش بالتجديد وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار ، إن هذه

الأمة بطرق متنوعة تكون من الأفراد الأميين ، ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها ، وتصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها » .

ويقول البروفيسور كلارك (Prof Clark) : « مهما قيل في تفسير المعارف ، فمما لا محيص عنه أنه سعي للاحتفاظ بنظرية سبق الإيمان بها وعليها تقوم حياة الأمة ، وجهاد في سبيل تخليدها ، ونقلها إلى الأجيال القادمة » .

لذلك ليس من المعقول ولا من الجائز أن تستورد أمة لها شخصيتها ورسالتها ولها عقائدها ومناهج حياتها ، ولها طبيعتها ونفسيتها ، ولها تاريخها وماضيها ، ولها محيطها الخاص وظروفها الخاصة ، نظاماً تعليمياً من الخارج ، ولا أن تكل وظيفة التعليم والتربية وتنشئة الأجيال وصياغة العقول ، إلى أناس ـ مهما بلغوا من البراعة في تدريس مواد تعليمية ، وإتقان اللغات والفنون ـ لا يؤمنون بهذه الأسس والعقائد ولا يتحمسون لشرحها وتعضيدها ، ويقول الأستاذ الأمريكي الدكتور (Dr. J. B. conant) في كتابه « التعليم والحرية » (Education And Liberty) : « إن عملية التعليم ليست عملية تَعَاطٍ وبيع وشراء ، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل ، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية أو الأوربية (إلى بلادنا الأمريكية) » .

وعلى هذا الأساس يتفق المعسكران الشرقي والغربي ، وقد سبق من أقوال خبراء التعليم وقادة الفكر في أوربة وأمريكا ما دل على وجهة نظرهم إلى المعارف ، وأنها ليست إلا أداة مؤثرة وفيَّة لترسيخ العقيدة ونظر الأمة إلى الحياة والكون وتعميق جذورها في قلوب الناشئة

ونفوسها ، ونقل التراث العقلي والعقائدي والاجتماعي إلى الأجيال القادمة ، وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها والمثابرة عليها ، والجهاد في سبيلها .

فأمَّا المعسكر الشرقي الذي اشتهر بالثورة على الأسس والقيم ونقض القديم وبلبلة الأفكار ، فإنه ليس أقلَّ تمسكاً بهذه النظرية ، نظرية التطبيق بين التعليم والعقيدة التي يختارها ، والفلسفة التي آمن بها ، وإخضاع نظام التعليم كله لهذا الغرض وصوغه في قالبه صياغة دقيقة متقنة من المعسكر الرأسمالي المنافس فيقول عالم طبعي من كبار علماء البلاد السوفيتية (Mc Govern) :

« إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي ، إنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف ، فإن سِمَة العلم السوفيتي الأساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميِّزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال في حاجة إلى أساس ، وإن أساس علومنا الطبيعية ، الفلسفة المادية التي قدمها « ماركس » و « أنجلس » و « لينين » و « ستالين » ، إنا نريد أن نخوض ـ وفي أيدينا هذه الفلسفة ـ في معترك العلم الطبيعي العالمي ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية الماركسية بكل عزم وقوة »[١] .

ومن المآسي التي تحيِّر العقل وتجرح القلب أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها في فوضى تعليمية وغموض والتباس بل في تناقض ومصارعة بين العقائد والحقائق التي تؤمن بها والغايات والأهداف التي

---

(١) راجعوا كتاب From Hitler to Brifber .

خلقت لأجلها ، والرسالة والدعوة التي تحتضنها وبين نظام التعليم الذي تطبِّقه ، والنظريات التي تستوردها ، والأساتذة الذين لا يؤمنون بها ، وعلى الأقل لا ينشطون في تدعيمها وتنميتها ، ولا تفكر في التطبيق بين العقيدة التي تتمسك بها وبين التعليم الذي تنفق عليه أكبر جزء من إمكانياتها ووسائلها ، مع أنها كانت بحملها الرسالة الأخيرة والعمل الأخير للإنسانية ، أجدر بهذا التطبيق وأحرص على إزالة جميع العناصر التي تجني على شخصيتها وبمقومات حياتها ومستقبل أجيالها ، وأغير على عقيدتها ودينها من الشعوب الغربية ، بما فيها الشيوعية والرأسمالية ، والتي تتناولها دائماً بالتغيير والتحوير ، وتعيش هذه الأقطار متطفِّلة على مائدة الأمم الأجنبية والنظم الدخيلة ، تقتبس منها وقد تطبقها بحذافيرها ولم تفكر إلى الآن في إخضاع جهاز التعليم لرسالتها السماوية وعقائدها الثابتة وعلومها المعصومة عن الخطأ والضلال ، وإزالة جميع العقبات في سبيل هذا الوئام والتعاون بين العلم والدين ، وتتصارعه القوى المضادة ، والموجهون المتنافرون ، ويسيطر عليها الفصام النكد بين العلم والدين والصراع المستميت بين الحقائق الغيبية والمحسوسات المادية ، وبين الإيمان والشك ، وبين الإسلام والنفاق ، وبين الخلق والثبات ، والاستغلال والانتهازية .

وقد شعر بضرورة ذلك بعض علماء الغرب المنصفين فقال أحد كبار أساتذة الإسلاميات في أمريكا (Charles L. Gedder) في كلمته التي ألقاها في ١٣/ مايو عام ١٩٦٦م في كراتشي :

« إن الإسلام يملك جميع الخصائص التي تستطيع أن تنشر السلام والانسجام في العالم ، إن الغرب يؤمل من المسلمين الذين يحملون

الدين الذي أنزله الله ، وكان لهم ماض مجيد مشرق ، أن يقدموا مبادىء الحياة وفلسفتها إلى الغرب ، وبذلك يستطيعون أن يحملوا راية الإسلام التي عينت لهم في عالم الغد » .

وذلك لا يكون إلا بإنشاء الجيل المؤمن المثقف الذي يجمع بين العقيدة والعلم ويؤمن بخلود رسالته وصلاحيتها لكل جيل وعصر ، وأنها هي المنقذة للعالم من النهاية الأليمة التي ترتقبه ومن المستنقع الذي يتردى فيه ، وذلك لا يمكن كما لا يخفى إلا بوجود نظام للتربية يقوم على تطبيق بين العقيدة والثقافة ، وبين قوة العاطفة وإشراق الروح والتهاب جذوة الإيمان ، وبين العلم الواسع والفكر النيِّر ، ومعرفة أحدث ما وصلت إليه الأجيال البشرية من تجربة واكتشاف .

وقد بدأت عملية تطوير المناهج لهذا الغرض وسبك منهج تعليمي جديد يتغلغل في أحشائه الإيمان بالله ويسيطر على جميع فروعه وجزئياته ، بعض الأوساط العلمية في الشرق ، أضرب مثلاً بما يقوم به صديقنا الفاضل الدكتور رفيع الدين[١] ، رئيس مجمع إقبال في كراتشي سابقاً ، وأقدم إلى معاليكم بعض النشرات التي صدرت من المؤسسة التي أسسها ويقوم بإدارتها .

إنه مشروع ضخم يتطلب ثورة في التفكير ومغامرة في المساعي والجهود ، ومثابرة تنهك القوى وتستنفد المجهود ، ولكنه عمل

---

(١) مع الأسف الشديد مات الدكتور قبل أن يكمل مهمته في حادثة في كراتشي سنة ١٩٦٩م فكانت خسارة عظيمة في مجال الفكر الإسلامي والتخطيط التعليمي ، رحمه الله وأثابه .

تجديدي من أعمال الإصلاح والتربية ، وأكبر خدمة للإسلام والمسلمين في هذا العصر ، والذي يقوم به يستحق شكر الأجيال القادمة ، وأردد قول بديع الزمان الهمداني ، وأقول : « إنه فتح يتضاءل أمامه الفتوح ، وتثني عليه الملائكة والروح » والعالم الإسلامي يتطلَّع إلى العملاق الذي يقوم بهذا العمل ، فإنه يؤثِّر في مصير هذه الأمة ما لا يؤثِّر غيره .

وأقدم إليكم العناصر التي تنافي هذه الغاية وترزأ هذه الأمة في شخصيتها وكيانها وسلامة تفكيرها :

١ ـ استيراد المناهج الدراسية والمواد التعليمية من الخارج .

٢ ـ استيراد الأساتذة والمعلمين من أوربة وأمريكا ، الذي أقل ما يقال فيهم أنهم لا يستطيعون بحكم عقيدتهم وفلسفة حياتهم وثقافتهم الأجنبية أن يخلصوا في إنشاء الجيل الجديد ، على العقيدة الإسلامية والعقلية المؤمنة ، ويتحمَّسوا في تبليغها وإقناع التلاميذ بها .

٣ ـ إرسال البعوث إلى الخارج للتوسُّع في الدراسات والتضلُّع من اللغات ، إن هؤلاء الشباب الغض الطري الذين لم ترسخ فيهم العقيدة ولم تنشأ فيهم روح المقاومة والصمود ، يخضعون للمحيط الأجنبي القاهر الذي لا يثبت فيه إلا النادر من الأقوياء المحنكين ويفقدون شخصيتهم ويعودون إلى بلادهم مضطربين حائرين ، إذا لم نقل مارقين منافقين ، يحدث ذلك اضطراباً في المجتمع وصراعاً في الفكر وقدوة غير صالحة ، وقد بدت طلائعه في المجتمع العربي الإسلامي .

٤ ـ الاهتمام الزائد باللغات وإعطاؤها أكثر من حقِّها فإنها تنمو وتتوسَّع على حساب اللغة العربية والمواد الإسلامية ، والإكثار من دراسة اللغات الأجنبية وتدريس عدة لغات في وقت واحد قد أصبح

موضع جدل وبحث عند خبراء التعليم ، خصوصاً في المراحل الابتدائية والمتوسطة وقد بدأ في كثير من البلاد الشرقية اتجاه إلى إقصاء اللغات الأجنبية عن مناهج التعليم في شيء من المبالغة والعصبية ، وقد قرر خبراء التعليم في بلادنا الهند التقليل من قسط اللغة الإنجليزية مع أنها قد أصبحت لغة التفاهم بين الولايات ولغة الصحافة والبرلمان ، وبلادنا العربية أحق بالغيرة على لغتها العربية المعجزة من هذه البلاد الشرقية الإسلامية وغير الإسلامية ، ويجب التفكير في هذه القضية من جديد أو تقرير شيء يقي هذه البلاد المقدسة التي هي منزل الوحي ومولد اللغة العربية ، من غزو هذه اللغات الأجنبية التي أصبحت تنافي لغة القرآن ولغة الأمم وتسحر عقول الشباب وتستهويها استهواءً أصبح خطراً ملموساً في كل طبقة ومستوى .

٥ ـ إقصاء الأساتذة الذين يؤمنون بمذاهب دخيلة وفلسفات هدامة ولا يؤمنون بأن لهذه البلاد رسالة ودعوة ، وأن هذا الجيل الذي ينشأ في هذه المدارس هو وارث الجيل الإسلامي الأول الذي حمل مشعل الإسلام إلى الآفاق البعيدة ، واستمات في سبيل العقيدة والدعوة ، وإنه يرتجى منه أن يكون جيلاً مثالياً للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وإذا لم يكن لإنسان يؤمن بالمبادىء الرأسمالية ويحمل دعوتها حق في أن يكون معلماً وموجهاً في مدرسة صغيرة في البلاد السوفيتية ، وإذا لم يكن لأكبر عالم شيوعي حق في أن يكون معلماً أو مديراً لمكتب أو شركة في أمريكا ، فكيف يجوز للأساتذة الذين لا يؤمنون بخلود الرسالة الإسلامية ، ونبوة محمد ـ ﷺ ـ ، وكونه رحمة للإنسانية ، ودينه سفينة نوح في كل عصر ، ولا يؤمنون بفضل الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لهذا العصر ، ولا يؤمنون بالقرآن ولا يؤمنون بالحاجة إلى الإيمان ،

وهم دعاة مخلصون لمذاهبهم وفلسفاتهم ، من التعليم إلى الاقتصاد والسياسة والأخلاق ، كيف يجوز لهم أن يكونوا أساتذة مربين وقادة موجهين في قلب العالم الإسلامي وفي معقل الإسلام وحصنه ، هذا شيء لا يقبله عقل ولا منطق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

أبو الحسن علي الحسني الندوي

أمين ندوة العلماء العام لكهنؤ (الهند)

وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٢٧ـ رجب ١٣٨٧هـ

* * *

مسؤولية أمراء العرب
في أطراف الجزيرة والخليج العربي
في المحافظة على سلامة البلاد ووحدتها الدينية

(من كتاب إلى صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير دولة الكويت سابقاً)

[زار كاتب هذه السطور الكويت في شعبان ١٣٨١هـ (يناير ١٩٦٢م) ، وأقام فيها عدة أسابيع محفوفاً برجال العلم والأدب والثقافة والدين ، قابل أمير البلاد صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح ، ودرس أوضاع البلاد واطلع على مشاريع تقدمها ونهضتها ، ونظر إلى البلاد نظرة مسلم واع محب للبلاد وأهلها ، دارس للتاريخ ولما مرَّت به البلاد العربية كلُّها من مراحل تجريبية وسياسية وحضارية ، وكتب في ضوئها هذا الكتاب الذي قدم إلى سمو الشيخ وقرأه واطلع على ما فيه .

وفيما يلي نص هذا الكتاب الذي بقيت صورة منه محفوظة في أوراق الكاتب] :

حضرة صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير دولة الكويت المعظم !

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله العلي العظيم ، والصلاة على نبيه المختار الذي أكرم الله به العرب وأنقذ الإنسانية وأسعد العالم ، وبعد ، فأرى من الحق الواجب عليَّ كزائر مسلم ، أن أبدي سروري وإعجابي بما رأيته من عنايتكم بتقدُّم البلد ورخاء الشعب ، وبما وصل إليه الكويت في مدة قريبة من العمارة والحضارة والازدهار ، وقطع شوطاً واسعاً في عهدكم الميمون وتحت إشرافكم الكريم ورعايتكم الأبوية ، متع الله بحياتكم وعطفكم البلاد والعباد .

وضناً بوقتكم الثمين أتقدَّم ببعض ملاحظات ومعروضات إلى سموكم في أدب واحترام يليق بمقامكم السامي ، وفي إيجاز نظراً لأشغالكم وما أخذتموه على عاتقكم من مسؤولية وخدمة .

الأمر الأول : أن الله سبحانه وتعالى قد منح سموكم فرصة نادرة في التاريخ ، تستطيعون أن تمثِّلوا دوراً خالداً يذكر ويشكر ، وهو ملأ أروع فراغ في مدنيتنا الحاضرة ، وذلك الفراغ هو فقدان دولة تجمع بين الدين والمبادىء ، وبين الوسائل والمادة ، وفقدان مجتمع يجمع بين الإيمان والأخلاق ، وبين اتصال بالعالم المعاصر والاستفادة بالتجارب الجديدة ، وذلك فراغ لا يملؤه الآن أكبر دولة في العالم ، وكل من يمثل هذا الجمع النادر بين الدين والمدنية هو رجل الساعة المنتظر ، وكل دولة تظهر بهذا الشعار هي دولة تحتل المكان الأول معنوياً في قائمة الدول والحكومات ، وتتمتع باحترام لا تتمتع به أعظم دولة في العالم ، هذا عدا النصر والتأييد الإلهي والبركات الكثيرة والحب العام الذي وعد الله به عباده المؤمنين الصالحين الذين يستخلفون لهذا الدين ، ويحتضنون رسالته ويجاهدون في سبيلها .

والوسائل لتحقيق هذا الغرض متوفرة ، والفرصة سانحة ، والأمر ميسور ، إذا صحت العزيمة وقويت الإرادة ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

والأمر الثاني : أن الله سبحانه وتعالى قد قضى منذ بعث رسوله ﷺ أن لا نهضة للعرب ولا سيادة ولا وحدة ولا حلَّ لمشكلاتهم ، إلا عن طريق هذا الدين وعن طريق محمد ﷺ ، والتاريخ يشهد لذلك ، والحوادث الجديدة قد برهنت عليه ، فكلُّ من يحاول أن يضعف صلة الأمة العربية بمحمد بن عبد الله ﷺ ، أو يحدث عنها كأمة مستقلة كانت قبل محمد ﷺ وكانت بعده ، وستظلُّ قائمة بمواهبها وإمكانياتها ، وتبني كيانها على أساس آخر ، أقدم من البعثة المحمدية أو جديد ، فهو يجني على الأمة العربية جناية لا تعدلها جناية وجريمة ، ويقتلع من نفسها جرثومة الإيمان ويزلزل عقيدتها ، ويهدم ما بناه المصلحون والمخلصون ، وما بنته الأمة العربية في قرون ، ولا يستحقُّ تشجيعاً من دولة عربية مسلمة ، فهو أعدى عدوٍّ لها ، وهو الذي يقطع صلتها عن ماضيها وعن دنيا الإسلام الواسعة ، وينضب معينها من غير تعويض يكافىء هذه الخسارة العظيمة ، ومثل سموكم في غنى عن الشرح والتفصيل .

والشيء الثالث : هو توجيه المعارف في البلد الإسلامي العربي توجيهاً إسلامياً مؤسساً على تفكير أعمق ، وتصميم وتخطيط خاص يتفق مع رسالته ، وعقيدته ، إذ « المعارف » هي مربية للأجيال القادمة، وعليها يتوقف مستقبل هذا الشعب الديني والخلقي واتجاهه وتوجيهه للمدنية ، ومنع الميوعة والتفسخ الخلقي في الشباب والنشء ،

لأنه ما دخل في أمة إلا ضيعها وأذلها وأضعفها ، وهو يعارض الاستقامة التي يطلبها الدين ، والفروسية التي تقتضيها العروبة ، الأمر الذي تحرصون عليه سموكم ولا شك .

والشيء الرابع : الذي تشكرون عليه هو مساعدة الشعوب المسلمة وتكميل مشروعاتها التي لا بقاء لها بغيرها ، بما يفضل عن تقوية شعبكم الكريم وتنظيم شؤونه ، ففي ذلك تقوية لشعبكم وزرع للحب في النفوس ، وشكر على نعمة الله العظيمة .

والشيء الخامس : هو الحذر من قيام المعابد لغير المسلمين في أرض هذه الجزيرة التي ولاكم الله أمرها واستخلفكم فيها ، فإن وجود هذه المعابد في هذه الجزيرة التي أوصى رسول الله ﷺ بتجريدها للإسلام والمسلمين وعقيدة التوحيد الخالصة وعبادة الله وحده ، التي جاء بها الإسلام ، وإخلائها من اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب فضلاً عن عباد الأوثان ، وقد صح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، حتى لا أدع فيها إلا مسلماً » ، وقال في آخر كلامه في الدنيا : « لا يبقين دينان على أرض العرب » وقالت عائشة : ـ رضي الله عنها ـ : « كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : لا يترك بجزيرة العرب دينان » ، ووجود هذه المعابد خطر على سلامة هذه البلاد ، فإن أهلها يطالبون بحمايتها ويستغلون وجودها ، فتنشأ مشاكل يعجز العقلاء عن حلها .

كذلك الحذر من تضخم عدد الأقليات غير الإسلامية والجاليات الأجنبية واستفحال أمرها وقوة مركزها ، وتملك هذه الأراضي ، فإنها

ستنشىء دولة في ضمن دولة ، وقضايا معقدة تدع الحليم حيران .

وفي ذكاء سمو الأمير وبعد نظره وتجارب البلاد والأمم ما يغني عن تفصيل هذا الإجمال وعن الإطناب في هذا الموضوع .

وأرجو المسامحة في هذه الجراءة التي لم يكن دافعها إلا الإخلاص والدين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الداعي لحياتكم ونصركم
أبو الحسن علي الحسني الندوي

الكويت ٢٢ شعبان ١٣٨١هـ

* * *

كيف ينظر العالم إلى جزيرة العرب
وماذا يؤمل منه ؟

[طلبت الإذاعة السعودية التي كان مقرها في مكة عام (١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م) أن يذيع صاحب هذا الكتاب سلسلة أحاديث من الإذاعة السعودية ، يسمعها المستمعون في داخل الجزيرة وخارجها ، فيها أدب ودين ، ورسالة وتوجيه .

وانتهز المؤلف هذه الفرصة الثمينة للتحدث إلى أبناء هذه الجزيرة ، وإخوانه في الدين والعقيدة ، ومحط آمال المسلمين جميعاً ومطمح أنظارهم ، وهو لا يراهم ولا يعرف أكثرهم ، فينقل إليهم آلامه وآماله ، ويعبِّر لهم بشعور العالم الإنساني نحو مسؤوليتهم ودورهم في بناء الإنسانية وإغاثتها ، فضلاً عن العالم الإسلامي الذي ظهر إلى الوجود بدعوتهم وكفاحهم ، فكتب هذا الحديث الذي أذيع من دار الإذاعة السعودية بمكة المكرمة بعنوان : « من العالم إلى جزيرة العرب » وتلاه حديث آخر : « من الجزيرة العربية إلى العالم » ، فكان حواراً صريحاً بليغاً بين العالم والجزيرة ، تلخص فيه ما تحويه الكتب الكبيرة من مشاعر وأفكار ، وحقائق ووقائع ، تذكر كلاًّ من الطرفين بمسؤوليته وواجبه ، وتحفزهما على الكفاح والنهوض بالرسالة .

وإلى القراء الحديث الأول الذي له صلة وثيقة بموضوع هذا الكتاب والغاية منه] :

فرصة سعيدة يا جزيرة العرب ! لي معك اليوم حديث خطير قد خبأته لك من زمان وصرفتني عنه خطوب ونوائب شغلت خاطري ، إلا أن هذا الحديث قد ملك اليوم قلبي وثقل على نفسي ، فلم أر اليوم بداً من أن أفضي به إليك ، وأتنفس مما أجده من الضيق والألم .

زهدني في هذا الحديث ما كنت أراه من انسحابك من الحياة وتنزُّلك عن القيادة التي تبوأتها زمناً غير يسير ، وما كنت أراه من رغبتك في العزلة عن العالم وما يقع فيه من حوادث ، وما يتجدد فيه من شؤون ، وكرهت أن أزعجك وأقلق بالك ، وقلت : لقد رقدت الجزيرة بعد سهر طويل سهرته في مصلحتي ، واستراحت بعد عناء كبير تحملته في سبيلي ، فلا ينبغي لي أن أوقظها وأقض مضجعها ، ولكن الخطب كان أجل من ذلك وأعظم ، ولم أر مفزعاً بعد الله إلا إليك وقلت : لقد وجدت في هذه الجزيرة غوثاً ونجدة قبل ثلاثة عشر قرناً ، وقد أحيط بي يومئذ ، فعسى أن أجد فيها فرجاً وروحاً مرة ثانية .

أراك أيتها الجزيرة العزيزة ! تنظرين إلى نفسي نظرة الحياء ، وتلقين على نفسك نظرة الازدراء ، تنظرين إلى تقدمي في الصناعة والاختراع ، وإلى تسخير الإنسان للبخار والكهرباء ، وتسخير الطاقة الذرية في الزمن الأخير ، وتقولين في شيء من الخجل والاعتراف ، وفي شيء من الجراءة والشجاعة : لقد تقدَّم العالم بعد ما خرج من حضانتي تقدماً مطرداً ، وقطع أشواطاً بعيدة في العلم والمدنية ، هوني عليك أيتها الجزيرة! فإن هذا الإنسان الطائر في الهواء ، العابث بأمواج الأثير لا يزال طفلاً صغيراً في أخلاقه وفي شعوره الاجتماعي وفي عناده وقصور نظره وأثرته ، وإيثاره الصور والأشكال على الحقائق

والمعاني ، وافتتانه بالمهازل والملاهي ، فلو علمت أيتها الجزيرة ! ما وراء الأكمة لهان عليك الخطب وعلمت أن الإنسانية لا تزال حيث خلفتها ، وأن الإنسان وإن أصبح يطير في الهواء كالطير ، ويسبح في البحر كالسمك ، فإنه لا يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان .

أراك أيتها الجزيرة ! تنظرين بدهشة واستغراب إلى معاهدي العامرة وإلى مكتباتي الزاخرة ، ومطابعي المتدفقة ، وحركة التأليف والنشر القوية ، وإلى هذا الأدب الخصيب الذي يطلع كل يوم بشيء جديد ولكن لا تعجلي ، إن روح هذه الحركة التجارة والاستغلال ، وإن كثيراً من حملة الأقلام يتاجرون بأخلاق الناس وضمائرهم ويحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع وتروج بضاعة الخلاعة والاستهتار ، ولا تستغربي إذا حدثتك أن كبار المثقفين والأدباء عندي لا يفضلون في الأخلاق والصبر على مكاره الحياة والعزوف عن الشهوات وإنكار الذات ، على الأعراب الذين يضرب بهم المثل في الجفاء والجهل والأمية .

أراك أيتها الجزيرة ! تصغين إلى الكلمات الرنانة التي تلوكها ألسنة السياسيين ، وترددها أقلام الصحفيين ، كالعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والجمهورية ، كأنك تسمعين كلمات لها معنى وتطبيق في الحياة كما حدث العالم من قبل بكلمات صادقة يوم كان اللفظ دليلاً على معنى ، ويوم كان الإنسان يرى نفسه مأخوذاً بقوله . . هيهات لقد تقدَّم الزمان وأصبح كثير من الكلمات لا يقصد بها معنى ولا تراد بها حقيقة ، رحم الله من اعتمد على الكلمات ، ورحم الله من صدق أهلها فيما يقولون .

أراك أيتها الجزيرة ! تنظرين إلي فتغبطيني على ما تعتقدين عندي

من صفاء وسرور وراحة ، ونعيم وهدوء وسلام ، لقد استسمنت يا هذه ذا ورم ، أنا جسم قد علتني أورام غير طبيعية فظنني الجاهل صحيحاً سليماً ، مع أني مريض دنف أشكو في كل عضو من أعضائي أوجاعاً وأوصاباً ، أشكو في قلبي وجعاً ، وفي رأسي صداعاً ، وفي عيني رمداً ، وفي دمي نزفاً ، وفي نفسي اختلالاً ، تارة أصاب بطوى وجوع تكاد تزهق له نفسي ، وأخرى ببطنة وتُخمة تكاد تقضي عليَّ وتقتلني ، وقد اجتمع حولي متطببون ومشعوذون يعالجونني بالأمراض ويداوون الداء بالداء ، وبعمليات جراحية خرقاء ، لقد قتلوني قتلهم الله ، عالجوا مشاكل الاقتصاد بحركة منع الولادة ، وسوء التصرف في المال بتحريم الملك الشخصي ، واستبداد الأحزاب واحتكار الأفراد باحتكار الشركات . . والرأسمالية الجائرة بالاشتراكية المرهقة ، والاشتراكية العمياء بالجمهورية العوراء ، لقد داووا جوراً بجور وظلماً بظلم ، وإسرافاً بإسراف ، وجهلاً بجهل ، وعلة بعلة ، فزادوني مرضاً على مرض وضعفاً على ضعف .

إليك جئت أيها الجزيرة العربية ! بما معي من أدواء وأوجاع وقد فضحت أمامك نفسي وكشفت سري فهل تغيثينني وتسمعينني كما أغثتني بالأمس وأنقذتني من الموت الأحمر ، فلست اليوم بأقل حاجة إلى إسعافك وإنجادك ، من يوم بعث رسولك وأشرق عليَّ نورك ! !

لا تغرنك أيتها الجزيرة مني مظاهر المدنية الجوفاء ، وهذه الطائرات المحلقة في الهواء ، وهذه الناطحات للسماء ، وهذه الآلات التي ملأ صوتها الفضاء ، فيسهل عليَّ أن أتخلى عن كل كنوزي وأتنازل عن كل ما تنظرين إليه نظر الغبطة والطمع وأستبدل بها ما قد فقدته من

الإيمان الذي جاءت به الأنبياء والرسل ، والذي فقدت معه قوتي وحرارتي وشخصيتي وروحي ، وأصبحت جسداً ميتاً قد يطفو على الماء وقد يحمله الهواء .

نفسي فداؤك يا جزيرة العرب ! خذي مني ما شئت من سيارات وقطر وطائرات ، وماكينات وآلات ، وزخارف وأدوات ، وتصدقي علي بهذا الإيمان الذي لا أجده في أسواقي ولا تنتجه مصانعي ، على كثرة ما تنتج وعلى غرابة ما يخرج منها ، ولم أكتسبه من مكتبتي الواسعة ، ولا يفيدني إياه فلاسفتي ومفكريَّ وكُتَّابي وزعمائي ، إنما أفاده العالم « أمي » لا يزال في أحضانك ، فعاش هذا العالم بعد ما كان ميتاً وأبصر بعد ما كان أعمى ، وتماسك بعد ما كان متزعزعاً ولم يصب أحداً شيء من هذا الإيمان إلا عن طريق هذا النبي الأمي ، ولن يصيب أحداً إلى آخر الأبد إلا عن طريقه ، لذلك جئت سائلاً ، فلا تنهريني ولا ترديني خائباً !

أنا أيتها الجزيرة ! حائر تائه ، قد تكدَّست عندي آلات وأدوات ووسائل ، ما عرفت كيف أصنع بها وكيف أستعملها ، فإني إلى الآن لم أعرف ما غاية هذه الحياة وما نهايتها ، ومن خالق هذا الكون ، ولأي شيء خلقه وما مركز هذا العالم وما روح هذه الحياة ؟! وما هذه الآلات والمصنوعات ، بل ما هذه القوى المودعة في هذا الكون وهذه الخيرات المنبثة على الأرض إلا كسراً من كسور هذا العالم الكبير ، فمن كان حائراً تائهاً في هذا المجموع الكبير كان خليقاً بأن يكون حائراً تائهاً في كسوره ، خابطاً في استعمالها قد يستعملها في خير ، وقد يستعملها في شر ، وطالما يستعملها بلا غاية ، والغايات لا طريق إلى معرفتها إلا

الأنبياء والمرسلون ، أما المكتشفون والصناع فإنما موضوعهم الآلات والصناعات ، ولما تفردت بالوحي تفرَّدت بالغايات ولما عنيت بالصناعة والاكتشاف تفرَّدت بالآلات والمصنوعات ، وبانفصالنا شقيت الإنسانية فهلمِّي يا مهد الإيمان ويا مهبط الوحي نتعاون على سعادة الإنسانية وصالحها ، فأنجدي العلم والصناعة بالغايات والروح والإيمان ، وأنجدي الدين بالآلات والوسائل ، حتى تسير الإنسانية رشيدة الغاية سديدة الخطى ، على جناح السرعة والقوة ، فبك تستفيد صلاح الغاية وصحتها ، وبي تستفيد سرعة الوصول إلى هذه الغاية الرشيدة .

جودي عليَّ أيتها الجزيرة ! بنفحة من نفحات محمد ﷺ أحلُّ بها مشاكل حياتي وألغاز مجتمعي ، وأحيي بها موات قلبي وأطفىء بها جحيم المادة التي أحاطت نيرانها بهذه المدنية وبكل فضيلة إنسانية ، وقد هبَّت نفحة منك في القرن الإسلامي الأول فحوَّلت هذا العالم الفسيح من جحيم إلى نعيم ، وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الله نبيه ، فعودي على هذا العصر بنفحة جديدة تنفخ فيه روحاً جديدة وتبعث هذا العالم بعثاً جديداً !

إنك تجودين عليَّ أيتها الجزيرة العربية! بمقدار عظيم من البترول أدير به ماكيناتي وأسيِّر به عجلاتي ، فأنا أدين لك بالفضل وأشكر صنيعك ، ولكني كنت أنتظر منك ـ أيتها الجزيرة السعيدة ، يا مولد نبي الرحمة ـ شيئاً أعز وأثمن من الذهب الأسود ، كنت أنتظر منك أن تخرجي لي عجلة الحياة التي غاصت في الوحل ، وأن توجهيها التوجيه الصحيح وأن تخلصي ركَّابها من هذا المأزق ، فقد عجزت حكمة

الحكماء وصناعة الصناع من إخراجها ، فأخرجيها بما معك من حكمة النبوَّة وبقية قوة الرسالة والإيمان واليقين ، وسيِّريها بنور الشريعة الإلهية والهداية الإسلامية .

وفي الأخير أقول : إنك يا جزيرة العرب قطعة مني يصيبك خيري وشرِّي ، ويصيبك لفحي ونفحي ، ما يمكنك أن تعيشي منعزلة عني ، فإن أدركتني وأصلحت شؤوني ، فإلى نفسك أحسنت ، وإلا فعليك وعلى أهلك جنيت !

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

هذا الكتاب

للحجاز مكانة كبرى في العالم الإسلامي ، فهو بمثابة مركز القلب في الجسم الإنساني ، فالحجاز فيه الحرمان الشريفان ، وهو مهبط الوحي ، ومبعث الدين ، ومصدر الدعوة ، وعاصمة الإسلام الخالدة.

وقد وفَّق اللهُ تعالى أبا الحسن الندوي لكتابة رسائل إلى عددٍ من أمراء جزيرة العرب ، ولفت أنظارهم إلى ضرورة التمسك بحبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، والتشبث بنبوة محمد ﷺ ، وأن يكون دورهم - بالوسائل الحديثة والثروات الواسعة - دور الأصالة والتجديد والصيانة.

ولقي الندوي - رحمه الله - بعد تلك المراسلات والأحاديث: رحابة صدر ، وسعة أناة ، مما شجَّعه على الصراحة والاسترسال في الحديث.

إن نَشْر تلك الأحاديث فيه نفع للمسلمين رعاة ورعية ، وفيه منهج للإصلاح والتربية ، والسير على صراط الله الحميد.

